
روايات مصرية للجيب
34
حكايات من التاتال
د. أحمد خالد توفيق
سافارى
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد كما يقول الغلاف كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال إفريقيا) وهو محرّف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطّرد فى وطنه ، فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ، ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

حكاية الطبيب وقطاع الطريق

(١)

لا أعرف حقًا ما دهانى ..

عندما أسترجع أيامى الأولى فى الناتال والممرضة السمراء (أونوابا) .. تلك الزهرة البرية التى خرجت لى فجأة من أعماق تاريخ الزولو .. يبدو لى الأمر كله حلمًا أو ضربًا من الهلوسة ..

هل حقًا وقع (علاء) فى الحب ، وهل ابتلت لحيته بالدمع وهو يجلس كالمتسولين على رصيف ميناء فى (دربان) يقص قصته لمصرى لم يلقه إلا اليوم ؟ هل حقًا راح (علاء) يتردد على قرية قرب (توجيلا فيرى) حيث يرقص له الزولو رقصاتهم التاريخية ، بينما هو لا يملك أدنى فكرة عن طريقة العودة؟

كل هذا حلم أو هلوسة ..

هذا لم يحدث .. أشعر بهذا وأوقن به .. لقد أمسى ذكرى بعيدة جدًا إلى حد أن وجودها نفسه صار مشكوكًا فيه ، كتلك الذكرى التى لا تفارقنى عن سيدة تشبه أمى تدس فى فمى قنينة من البلاستيك امتلأت بلبن دافئ المذاق .. هل للرضيع ذاكرة

تبقى كل هذا الزمن ؟ أم أن هذه صورة تكفل خيالى بتلفيقها بعد كل هذه السنين ؟ أى أنها ذكريات ذات أثر رجعى ؟

لكن الحنين كان يخنقنى أحيانًا لـ (أونوابا) .. كانت هناك أكثر من واحدة .. تلك النظيفة الرشيقة الرقيقة التى وقفت تفاصل البائعة من أجلى فى سوق بـ (دربان) .. وتلك التى راحت ترعانى جريحًا كطفل وتحكى لى عن (البوشمان) و(الهوتنتوت) .. وتلك التى راحت ترقص حول النيران أغنية الأب الذى تزوجت ابنته .. كل هذه الوجوه ليست بالتأكيد وجه الشيطانة التعسة التى انكشف أمرها ..

أحيانًا كنت أرى نفسى مجرد وغد لا خلاق له سقط فى شرك ساحرة أفريقية حتى أوشك على التخلى عن رفيقة دربه الرقيقة الباسلة ، وأحيانًا كنت أسترجع كل هذا فى رومانسية وأقول لنفسى : لقد خلقنا الله وهو وحده يعرف أننا قد نحتاج إلى الزوجة الثانية فى لحظة بعينها ..

(أونوابا) كانت تختلف .. لهذا كان كل ما ولدته فى نفسى مختلفًا .. ترى أين هى الآن ؟

وفى الليل عندما كنت أوشك على دخول فراشى ، كان نوع من الجنون يحل بى فأنتزع منامتى لأقف بالفاتلة الداخلية أمام

المرآة ، وآتى بحركات راقصة صرت أحفظها تمامًا ، وأردد بتلك النغمات الأفريقية الممطوطة التى لها رائحة الدغل:

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىىى ! »

ثم أضرب المنضدة ضربة قوية كالتى يحدثونها بضرب دروعهم بمؤخرات الرماح.. تسقط زجاجة الماء لتهشم الكوب .. وهكذا تصير ليلة المحارب الشجاع سوداء ..

ـ « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىىى ! »

(برنادت) ... الكاميرون .. بارتلييه .. بسام .. شيلبى .. هل كتب علىّ للأبد أن أفتقد وجوهًا وأرى أخرى؟

★ ★ ★

وفى الصباح أمارس عملى فى الوحدة مع (سميث ماكفادين) الأسكتلندى الظريف الأصلع أحمر الوجه ، والذى يتمتع بدرجة عالية من السذاجة تجعلك تحبه على الفور ..

لقد تعافى الممرض (بوثليزى) من العلقة الساخنة التى تلقاها على أيدى أشقاء (أونوابا) ... كان هذا شرخًا فى قاع الجمجمة

استجاب للعلاج التحفظى على كل حال فلم تتلوث أيديهم بجريمة .. لقد فقد (بوثليزى) حيويته لكنه ما زال محتفظًا بتلك الكبرياء القاتلة .. (أليط) جدًا يعاملك من أطراف أنفه .. فأنت أبيض .. أى أنك لا تساوى شيئًا ورقيع على الأرجح .. كما قلت هذه حالة متقدمة جدًا من العنصرية المضادة ..

على أننى بدأت أستريح له .. لا ... هو لا يذكرنى بـ (بودرجا) .. (بودرجا) الممرض الكاميرونى الذى يعمل كمترجم كذلك .. (بودرجا) الطيب الظريف الثرثار الأحمق نوعًا ، والذى ترى روحه جلية فى عينيه الواسعتين فتشعر أنك تعرفه منذ كان فى المهد .. (بوثليزى) مغلق الروح لكنه مهذب ونكى .. وقد قدرت أنك إن لم تصر عدوًا له فأنت تحظى بمزايا كثيرة جدًا .. لا أنسى أن أذكرك بأنه متأنق بطريقة تثير الغيظ ..

المدير (بالينجا بايلا) كما قلت لك رجل وقور ، لكنه لا يحب الاختلاط بمرءوسيه ومن النادر أن تراه .. تعاملك اليومى هو مع الهولندية المدخنة بعنف (هانا فان بيردن) نائبة المدير .. سيدة عصبية قوية الشكيمة .. شمطاء نوعًا .. تكره الأفارقة لكنها تخفى ذلك ببراعة ..

حتى هذه اللحظة ما زال عملى مقصورًا على عنابر الإيدز ، والإيدز داء عانت منه البلاد كثيرًا .. لقد ظهر من مكان ما فلم يره أحد قادمًا ، وتوغل بسرعة جهنمية ..

إن الأرقام مرعبة بحق .. حتى أنا لم أدركها إلا عندما جئت هنا .. من بين ٤٠ مليونًا هم سكان جنوب إفريقيا يوجد أكثر من ستة ملايين يعانون هذا الداء الوبيل .. أى أن نحو ١٣٪ من مرضى الإيدز فى العالم كله يوجدون هنا ..

لقد ثبت أن مواطن جنوب إفريقيا يقضى فى الجنائز وقتًا يفوق الوقت الذى يمضيه فى التسوق والحلاقة .. وهو يحضر جنائز ضعف عدد الزيجات التى يحضرها فى أى شهر !

باختصار : كل يوم يشهد وفاة ٦٠٠ شخص بهذا الداء الوبيل ..

يستحقون ذلك ؟ لا أظن .. من السهل أن تتجنب هذا المرض ببعض الحذر والعفة ، لكن هناك نسبة لا بأس بها ممن يصابون به برغم أنهم لا يستحقون ذلك .. هناك الزوجة البائسة التى لا تعرف أن زوجها مصاب به وتصحو يومًا لتجد أنها مريضة إيدز .. وماذا عن ضحايا الاغتصاب ؟ إن جنوب إفريقيا يشهد أعلى نسبة اغتصاب فى العالم .. والآن ماذا عن الفتاة التعسة التى كانت كل جريرتها أنها لم تكن أقوى من أربعة رجال ؟ عندما تجرى التحليل تكتشف أنهم تركوا لها ما هو ألعن من المهانة النفسية وأن المرض القاتل يزحف فى دمها الآن ..

ماذا عن الرضيع الذى يأتى العالم مصابًا بالإيدز دون أن يقترف ذنبًا ؟ ماذا عن مصابى الحوادث الذين (أنقذوهم) بالدم قبل أن يصير تحليل الإيدز متوافرًا ؟

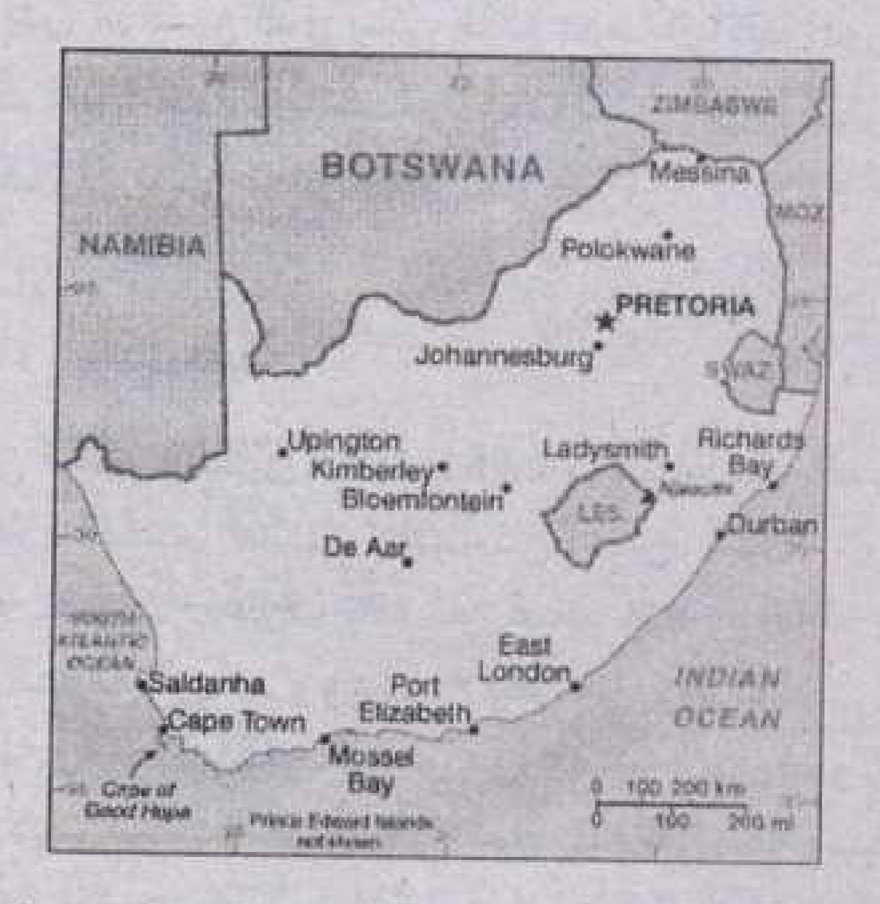
إن الإيدز مرض دنس .. لكنه يمتد لبعض الكثيرين من الأبرياء .. هذه حقيقة ..

حتى الحكيم (نلسون ماندلا Mandela) تجاهل هذا المرض ولم يعترف بحجم المشكلة عندما كان رئيس البلاد .. وبعد اعتزاله السياسة اعترف بأنه كان قصير النظر وأنه لم يفهم الحجم الحقيقى للوباء ، وهكذا راح يكفر عن خطأ الماضى بأن قاد حملة واسعة لمكافحة المرض ، واعتصر ملايين الدولارات من الولايات المتحدة معتمدًا على شخصيته الكاسحة وسمعته الدولية ، فلا أحد يستطيع أن يقول لا لـ (مانديلا) ..

وحدة سافارى قريبة من (ديربان Durban) المدينة الكبرى والميناء فائق الأهمية .. هل تذكرت كل شىء الآن ؟

★ ★ ★

من الصعب أن تتواجد فى جنوب إفريقيا ولا تقوم بزيارة حديقة (كروجر Kruger) القومية ، قرب (ليمبوبو) و(مبومالانجا) .. إنها واحدة من أقدم المحميات فى إفريقيا .. لقد وجدت لدىَّ أيام عطلة فقررت أن ألعب دور السائح ..



لاحظ أننى لا أستطيع الزعم بأننى رأيت (كينيا) حتى اليوم ، وبرغم كل ما شهدت من مغامرات هناك .. لكنى لن أرجع لمصر ويسألوننى عن كذا وعن كذا فى الناتال فأبتسم فى بلاهة .. من الغريب أن أكثر المصريين رأوا جنوب إفريقيا حتى لأشعر بأننى الأحمق الوحيد الذى لم يفعل !

كان من حسن حظى فى هذه الرحلة أن كان معى طبيبان من (سافارى) وهما لطيفا المعشر .. الطبيبة الإيطالية (سيمونيتا ألبرتينى) والطبيب الروسى (فاسيلى سيمياكوف) ..

أن لغتنا الإنجليزية سيئة بما يكفى ، وأسهل الأشياء أن يتفاهم من يتحدثون إنجليزية رديئة ! صحيح أنى احتفظت بعلاقة سطحية معهما ، لكن الزمالة لا تعنى الصداقة بالضرورة ..

دعك من أننى أعتقد أنهما متحابان .. ربما خطيبان .. هذا جعل واجب اللياقة يقضى بأن أبتعد عنهما أكثر الوقت ..

(سيمونيتا) نحيلة جدًا تضع العوينات ولها شعر أسود طويل مجعد .. طراز الفتاة التى تراها فى نشرات الأخبار فى المظاهرات المطالبة بوقف قتل الدرافيل .. أما هو فعملاق أشقر ملتح .. بالنسبة لى بدا مهذبًا لطيفًا .. لكنى أعرف أنها نعمة العلاقات السطحية حيث لا ترى إلا جزءًا بسيطًا من جبل الجليد ، ومن الصعب أن يكون هذا الجزء قبيحًا ..

والآن أحكى لك عن حديقة (كروجر) ..

إن هذه الحديقة تختلف بالتأكيد عن حديقة حيوانات الجيزة لو كان هذا قد جال بذهنك .. إنها عالم كامل .. قطعة من الطبيعة الثرية بها ستة أنهار تم إحاطتها بسور .. هناك القطاع الجنوبى الذى يعتبر معجزة جيولوجية بكل تلك الصخور العملاقة .. والقطاع الأوسط الذى يشتهر بنباتاته وخضرته .. القطاع الشمالى لم أره لأنه بعيد .. قليل هم السياح المتحمسون إلى

درجة قطع هذه المسافة للاستمتاع بالطيور لكن الأجانب قد يفعلونها .. فى الجنوب الغربى منطقة تعرف باسم (رمال سابى) حيث تقترب من الوحوش إلى درجة مرعبة .. السيارات غير مغطاة ولا تبدو لى منيعة جدًا لو قرر أسد متحمس أن يضيفك إلى قائمة العشاء ، لكن الأسود لسبب ما لا تفعل .. على أن الدليل لا يكف عن تذكيرك بأن مغادرة السيارة خطر .. خطر .. خطر ..

قال لنا الدليل أو حارس الغابة (لا أعرف بالضبط) واسمه (ثولانى) :

ـ «لسبب ما تعتبر الوحوش السيارة شيئًا مهيبًا يجب ترك كل ما يتعلق به فى سلام .. لكن ترك السيارة يعنى أنك شخص غير ذى خطر .. »

كدت أموت ضحكًا عندما سمعت هذا .. حتى وحوش الغابة تخدعها المظاهر الاجتماعية .. مثلما يحدث عندنا عندما يخاف شرطى المرور من طلب رخصتك إذا كانت سيارتك فاخرة مهيبة .. بعض الناس يصر على الاحتفاظ برقم السيارة المكون من رقمين أو ثلاثة ولا يقبل بيعه بآلاف الجنيهات من أجل هذه الهيبة ..

قال (ثولانى) ضاحكًا :

ـ «فقط الضباع صارت تتصرف بعدم احترام واضح هذه الأيام .. هناك هياج عام أصابها .. وقد لا تتورع عن مهاجمة السيارات .. لهذا خذوا الحذر .. »

ـ « هذا الغباء يدل على أنها ضباع على كل حال .. »

كان (ثولانى) من الزولو .. وهو رجل فارع القامة نحيل جدًا لكنه متأنق يذكرك برجال الدوريات فى الأفلام الأمريكية ، وهو حريص على هذا الطابع بارتدائه النظارة السوداء والقبعة واللادن الذى لا يكف عن مضغه .. لكنه كذلك كان شديد الكفاءة ..

هناك محمية اسمها (تيمبافاتى) تقع إلى الغرب وتمتاز بتنوع مذهل فى حيواناتها ونباتاتها ..

الخلاصة أن المشاهد مألوفة جدًا .. لابد أنك رأيتها ألف مرة فى التلفزيون .. الفارق الوحيد هنا هو أنت .. أنت بالذات وسطها ! إنه شعور لا يوصف ...

طبعًا بدد من هم معى خزينًا كاملاً من الصور على هذه الأشياء ، أما أنا فلا أفهم ذلك .. إن صورة واحدة لأسد لا تختلف كثيرًا عن ألف صورة له .. تكفيك صورة واحدة تلخص الموقف .. لهذا أمضيت الرحلة كلها دون أن أضيع أكثر من أربعين صورة ..

بالمناسبة : هذا هو (السافارى) بمعناه الحقيقى .. لقد جعلتنى وحدة سافارى أنسى المعنى الأصلى لهذه الكلمة ..

طبعًا كنا نبيت فى الخلاء مع المجموعة السياحية التى خرجنا معها ، وقد قالوا لنا إن الهواء يعج بالملاريا فى هذه المحميات المنخفضة عن سطح البحر .. أنا أتعاطى الأقراص الواقية من الملاريا بانتظام لكن لابد من ارتداء ثياب طويلة الأكمام ودهان الجلد بتلك الدهانات الطاردة للبعوض..

لم أر كل شىء ، لأن هذه الأمور تكلف مالاً.. الكثير منه .. لكنك على الأقل ترى قدرًا من الأفيال والأسود والظباء والزراف يكفيك بقية حياتك ..

عندما غادرنا الحديقة كان بوسعى أن أرى عربات الشرطة تقف على مسافات متباعدة .. رجالها يقفون فى الشمس يسترخون ، لكنهم لا ينسون تصويب نظاراتهم المقربة إلى سيارتنا الفان .. لقد كنا حوالى عشرة داخل هذه السيارة الفان معظمهم غربيون ..

قال لى (سيمياكوف) الروسى الذى لم تكن هذه رحلته الأولى :

- « دوريات الشرطة كثيرة جدًا هنا .. إن معدلات السطو المسلح والاعتداء من أعلى المعدلات فى العالم كله .. »

ليس هذا جديدًا .. إن التحذيرات الأمنية لاتنقطع منذ جئت هنا ، والشرطة ذاتها تستعين بشركات أمن خاصة لحمايتها ! دعك من أن جنوب إفريقيا رابع منتج للماريجوانا - الحشيش مع عدم المؤاخذة - فى العالم كله .. إن هذه البلاد نموذج آخر لاجتماع روعة الطبيعة مع قبح الظروف الاجتماعية..

وانطلقت السيارة فى الطريق الممهد جيدًا ، على يسار الطريق كما تعرف .. حيثما وجد البريطانيون يومًا انتقل مقود السيارة إلى اليمين وصارت تمشى إلى اليسار .. يبدو أن المصريين كانوا أكثر عنادًا من باقى شعوب العالم على كل حال ..

السائق رفع الهاتف وراح يصغى قليلاً ثم بدا عليه القلق ..

رأيته يتجه إلى اليمين ، ثم يتخذ طريقًا فرعيًا ضيقًا شبه مهجور ..

سأله (سيمياكوف) عما هنالك فقال موضحًا :

- « نسيت أن اليوم هو الحادى والعشرون من مارس .. »

هذا صحيح .. عيد الربيع وعيد الأم .. نسيت هذا .. هذا مبرر كاف فعلاً لترك الطريق العام ..

لكن بعيدًا عن المزاح ما معنى هذا فعلاً ؟

قال السائق وهو ينهب الأرض نهبًا:

ـ « هناك مناسبات عامة تخرج فيها المظاهرات .. وهذه المظاهرات قد تتصف بالعنف الزائد .. لذا يوصون السياح بعدم الخروج فى تلك الأيام إن أمكن .. مثلاً يوم ٢١ مارس هو يوم حقوق الإنسان .. سوف نجد الطريق مسدودًا بمظاهرات .. وبعض المظاهرات يكون غاضبًا متحمسًا أكثر من اللازم .. من الحكمة أن نقطع هذا الطريق الجانبى .. »

لكن ـ كما سنعرف حالاً ـ لم يكن هذا من الحكمة فى شىء ..

★ ★ ★

(٢)

الآن رحنا نقطع ذلك الطريق الوعر بين صفين من الأشجار .. لقد تركنا خلفنا الطريق السريع منذ نصف ساعة ، ومعه انقطعت سيارات الشرطة الواقفة بكثافة على جانب الطريق .. من حين لآخر كنا نرى حيوانًا ما .. إنه الدغل بالمعنى الحقيقى للكلمة ..

لا أعرف إن كنت قد نمت أم لا .. إن رتابة معالم الطريق ووعورته النسبية تجعلك فى حالة من انعدام التمييز ..

فقط سمعت صوت طقطقة لسان .. كان هناك من يستنكر فى جزع ، ففتحت عينى ..

كنت أتوقع كارثة وقد وجدت واحدة .. هناك على مدى النظر ترى تلك الحجارة العملاقة التى تسد الطريق .. ثلاثة حجارة يبلغ حجم الواحد منها ذلك المقعد الذى تجلس عليه ..

أبطأت السيارة .. وأعلن السائق أن علينا أن نترجل كى نزيح هذه الأشياء التى تسد الطريق .. قلت له وأنا أستعمل ما لدى من موهبة التشاؤم :

ـ « هذه الحجارة لم تسقط من السماء ولم يأت بها سيل .. هناك من وضعها .. »

نظر لى فى عدم فهم .. ثم بدأ يدرك الحقيقة كما هو واضح .. لقد أدار المحرك لوضع القهقرى وبـدأ يرجع بالسيارة إلى الخلف ، فقط عندما رأينا جميعًا صخرتين على الطريق الذى جئنا منه .. أى أنهما وضعتا خلال ثلاث دقائق !

السيارة الفان تدور حول نفسها كفأر فى مصيدة .. وفى اللحظة التالية رأينا خمسة الرجال يتقدمون منا .. نظرت إلى الخلف فرأيتهم ..

النصيحة التى طالما سمعتها فى جنوب إفريقيا هى : لا تترك الطريق العام أبدًا .. الكمائن كثيرة جدًا .. الفريسة المفضلة هى سيارات السياح العائدة من الحدائق المفتوحة .. لا تبد كسائح .. لا تبد متسكعًا فى أى مكان .. امش كأن لك هدفا واضحًا ..

لقد خالفنا كل هذه النصائح والآن الأمر واضح ..

كانوا خمسة سود كما قلت .. وقد كان اثنان منهم يحملان المسدسات والثالث كان يحمل بندقية آلية .. وكانوا يمشون نحونا فى تؤدة كأن لديهم كل الوقت فى العالم ..

ثيابهم هى خليط من سترات الجيش والفانلات الداخلية والسراويلات القصيرة و .. باختصار هى ثياب رعاع .. يشترونها من المحلات التى تعرض ثياب الرعاع ..

قال لنا السائق آمرًا :

- « لا داعى للبطولات الزائفة !.. أعطوهم ما يريدون ! »

بالطبع .. من المجنون الذى يبدى بطولة أمام هذا الكم من الأسلحة النارية التى فشلت الحكومة فى جمعها ؟

الآن كان أول الرجال عند النافذة ، وقد تكلم مع السائق بلغة محلية أعتقد أنها لغة الزولو ربما .. هناك حشد من اللغات هنا على كل حال .. إحدى عشرة لغة محلية يصعب أن تتذكر اسم ثلاث منها ..

قال لنا السائق أن علينا أن نحمل حقائبنا ونترجل .. أطرف ما فى الأمر أنه كان يتصرف بروتينية وملل كأن هذه فقرة معتادة من الرحلة السياحية ..

هكذا نزلنا .. وتمنيت أن ينتهى كل شىء بسرعة .. إنها ورطة لابد من اتخاذ أبلغ درجات الحكمة فيها .. ما هذا البلد ؟ إنه أكثر بلاد العالم خطرًا .. لقد شهدت ثلاث حوادث سطو مسلح منذ جئت هنا وهى فترة قصيرة نسبيًا .. أتذكر الآن أننى قرأت أن انتشار الجريمة من ضمن الأسباب المهمة التى تؤدى لهجرة سكان الناتال أوطانهم .. أشعر بأننى قد اكتفيت من جنوب إفريقيا فعلاً ..

جاء أحد الرجال حاملاً كيسًا خيشيًا وهى رسالة صامتة فهمها الجميع ، فراح كل واحد ينزع ساعته ويخرج المال من حافظته .. النساء انتزعن الحلى وألقينها إلقاء فى الكيس .. لكن الرجل لم يكن يترك تفاصيل .. لقد أخذ كل كاميرا فى يد أو حول عنق كل منا .. ثم قام بتفتيش سريع حاذق للحقائب لينتقى منها ما يروق له حتى لو كان (كاسكيت) أو خفًا ..

لاحظت أن هذا الرجل الذى يلبس السراويل القصيرة والصندل له قدمان متورمتان أكثر من اللازم كأنه الخنزير.. هذه ملحوظة لا يفوتها طبيب ، وتمنيت أن يكون الوغد مصابًا بداء عضال فى قلبه أو كليته .. إنه يستحق هذا .. نظرت لعينيه فوجدت تلك الانتفاخات الكيسية تحتهما بالإضافة لمظهر الحدقتين غير الطبيعى .. شعر أشيب .. شارب كث .. أذن تلف صوانها كآذان الملاكمين .. لو طلب منى أن أرسمه يومًا ما فسأفعل ..

أما زميله فقد صعد إلى السيارة وراح يفتش بين المقاعد عن شىء ثمين منسى ..

أخيرًا وقد صرنا مفلسين تمامًا بدا أن الرجال على وشك الانصراف .. ونظرت للأمام فوجدت سيارة عتيقة بلا لون ولا أرقام تقف وراء سد الحجارة .. إنها سيارة الهرب كما هو

واضح ، ومن الجلى أنها مركبة من عدة سيارات قديمة .. إلى أن نفرغ من رفع الحجارة سيكونون قد فروا إلى طريق جانبى يعرفونه جيدًا بالتأكيد ..

لكنهم لم يكونوا ينوون الرحيل بهذه البساطة ..

لقد وقف أحدهم ينظر لنا ثم أشار إلى الطبيبة الإيطالية .. نظرت لنا مذعورة لكن الرسالة كانت واضحة .. سوف يأخذونها معهم .. عيونهم الجاحظة تتكلم بوضوح ..

صاحت محتجة وتراجعت إلى الخلف ، فتقدمت أنا والروسى خطوة لنغلق عليها بجسدينا .. لكن هذا لم يزد الوغد إلا إصرارًا .. راح يقول كلامًا كثيرًا جدًا وهو يلوح بمسدسه وقد بدا نموذجًا لغطرسة القوة .. حتى لو لم يكن يريد فوقوفنا أمامه قد جعل الأمر يساوى حياتنا .. سوف يفعل ما يريد مهما حدث ..

هنا فقط فقد الروسى أعصابه ، وتقدم ليمسك بالرجل من ياقة سترته وهتف :

ـ « فقط حاول أن تمد يدك عليها أيها القذر ! »

قبل أن يكمل كلامه انهال رجلان عليه ضربًا وهو على قدميه ، ثم ركلاً عندما سقط على ركبتيه .. وقبل أن يقول المزيد أفرغ أحدهما طلقة مسدس فى جسده ..

أصبنا جميعًا بالذهول فتجمدنا والصدى يتردد عبر الأفق .. رائحة البارود هذه ..

كانوا قد فقدوا حماستهم .. لقد تلوثت العملية بالدم وهم لم يكونوا راغبين فى هذا .. إن القتل يجعل الأمور أكثر تعقيدًا .. لهذا تراجعوا إلى الخلف وهم يصوبون أسلحتهم نحونا ، ثم وثبوا إلى سيارتهم العتيقة وأداروا المحرك .. عندما تفر العصابة التى اعتدت عليك فإن محرك سيارتها يدور على الفور مهما كان عتيقًا ، بينما لو كنت أنت تفر منها فإن محرك سيارتك لن يعمل أبدًا مهما كانت السيارة حديثة .. هذه هى قواعد الحياة ..

انطلقت السيارة مبتعدة ، بينما ركعت أنا جوار الفتى ورحت أتحسس نبضه وأتفحص جرحه .. الحمد لله .. كان ينزف بغزارة من جرح فى كتفه لكنه حى .. الدم علي وجهه جاء من اللكمات التى تلقاها لا أكثر والتى هشمت سنين وأنفه ..

هرعت (سيمونيتا) تصرخ وتولول ، وركعت جواره توسد رأسه على ركبتيها ، فقلت لها :

- «إنه بخير .. ومغامرته المثيرة للشفقة قد احتفظت لنا بك على الأقل .. لولا هذه الجروح لكنت الآن فى السيارة معهم .. ليت كل التضحيات مثمرة بهذا الشكل .. »

لكنها لم تصغ وواصلت عملية غسل وجهه بدموعها حتى كاد يختنق ..

مد السائق يده إلى جيبه وأخرج الهاتف المحمول .. هذه هى مزية أنهم ينسون سرقة السائق دائمًا .. طلب الرقم العام للشرطة ١١٢ (وهو ١٠١١١ من الهواتف الثابتة) وراح يتكلم بضع ثوان ، ثم طلب منا أن نركب السيارة حالاً ... لن ننتظر الإسعاف ..

تعاونت والرجال على زحزحة صخرتين .. إن هذه الجلاميد مصرة على إطاعة قانون الجاذبية بعنف ، لكن يبدو أن هؤلاء اللصوص يتمتعون بلياقة عالية إذ كانوا يفعلون هذا مرارًا ..

انطلقت السيارة من جديد ..

هذه المرة قد ذاب الفرح وتلاشى السرور ومات الابتهاج .. أعتقد أن هذا المشهد سيظل فى كوابيس كل من عاشه فترة طويلة جدًا .. إن الناتال رحب بدرجة لا يمكن تحملها ..

لكنى كنت أفكر فى شىء آخر .. انحنيت على تلك الفرجة الصغيرة جوار مقعدى ورحت أعبث بصعوبة تامة إلى أن

استطعت الإمساك بحزام الكاميرا .. الكاميرا التى ألقيتها فى الفرجة عندما أحاط هؤلاء القوم بالسيارة .. هكذا لم يجدوها معى ولم يجدوها عندما فتشوا العربة ..

رفعت الكاميرا الرقمية ، واستعدت صورها الأخيرة .. بالذات الصورة التى التقطتها من وراء نافذة السيارة الخلفية لهؤلاء القوم عندما تقدموا نحونا ..

ها هم أولاء .. يتقدمون نحو الكاميرا مدججين بالسلاح وقد أحسنوا اختيار الإضاءة بحيث تكون الشمس أمامهم ، ولا تكون هناك انعكاسات من زجاج نافذة السيارة على الصورة..

صورة واضحة ممتازة وأعتقد أنها ستفيد رجال الشرطة كثيرًا ..

★ ★ ★

حكاية الزوجة وقنينة الزيت

(١)

ستة أطفال !

ستة أطفال خرجوا من بطنها هى .. لقد كانت أسرتها تتمتع بالخصوبة ذاتها .. لكنها كانت طفلة تلعب ، ولم تتصور أن تكبر يومًا لتدرك المعاناة التى تتحملها أمها ..

كانت (ماتديسا) يومًا ما جميلة .. كانت أجمل فتاة فى القرية ، والقرية كانت إحدى قرى (الخوسا Xosa) التى تقع قرب (دربان) ..

(أما خوسا) هو الاسم الذى يطلقه هؤلاء القوم على أنفسهم .. ولسبب ما تعنى لفظة (أما خوسا) الرجال الغاضبين ! لا تنطق الاسم بهذه الطريقة من فضلك .. لابد من أن تنطقه بطرقعة باللسان على مؤخرة الأسنان كأنك لا توافق على شىء ما ، وهو ما يكتبه الغربيون Tut tut.. ليس الأمر موضوعنا لكن دعنى أخبرك على سبيل العلم بالشىء أن لغتهم تتضمن ثلاثة أنواع من الطرقعة : سى = طرقعة أمامية .. ضع اللسان خلف الأسنان وطرقع .. كيو = طرقعة علوية.. أثناء نطق حرف Q طرقع بطرف لسانك على سقف فمك .. هناك طرقعة جانبية تبدو كصوت فتح سدادة الزجاجة ....

كما قلنا هناك إحدى عشرة لغة فى جنوب إفريقيا .. لعل أهمها الإنجليزية والأفريكانس والزولو والسواتى .. دعك من اللغات الهندية طبعًا .. هكذا تكون البلاد فى المركز الثانى بعد الهند من حيث عدد اللغات فى بلد واحد ..

كانت الحرب بين (البوير) وبين (الخوسا) حربا بين شعبين من الرعاة : رعاة هولنديين يملكون الأسلحة الحديثة ورعاة من أهل البلد نفسه لا يملكون إلا الشجاعة .. النتيجة هى خسارة أهل البلد الذين خصصت لهم حكومة التفرقة العنصرية ١٣٪ فقط من مساحة أرضهم للرعى وأخذت هى الباقى .. هل يبدو الأمر مألوفًا ؟ قلت لك منذ البداية إن أشياء كثيرة مشتركة توجد بين حكومة جنوب إفريقيا وإسرائيل ..

على أن البوير كانوا ريحًا صادفت إعصارًا .. عندما اكتشف الماس عام ١٨٦٧ والذهب عام ١٨٨٦ أدرك البريطانيون أن هذا البلد كنز حقيقى ، وفى هذه الأعوام تقريبًا وقعت حرب البوير الأولى بين البريطانيين والبوير .. تلك الحرب التى ربحها البوير بجدارة لأنهم كانوا يعرفون كل شىء عن البلاد .. مثلاً كان البريطانيون يلبسون سترات حمراء زاهية كأنهم يساعدون رماة البوير على التصويب .. تعلم البريطانيون من هذه الأخطاء وخاضوا حرب البوير الثانية من دون سترات حمراء ، وسحقوا البوير سحقًا ..

على كل حال بالنسبة للسكان الأصليين التعساء لم تكن هناك أهمية لمن يسحقهم .. لقد اجتمع حصار البوير والبريطانيين مع هجمات الزولو الشرسة ووباء الماشية اللعين الذى أصاب رناتها فى القرن قبل الماضى .. كل هذه الأشياء دمرت شعب (الخوسا) تمامًا .. ليس تمامًا فلا تنس أن العظيم الحكيم (مانديلا) منهم وليس من القبائل الأخرى ..

شعب عريق عظيم من الرعاة وكعديد من الشعوب العريقة العظيمة انقرض تقريبا .. صحيح أنهم يشكلون اليوم ثمانية ملايين لكن هذه لا قيمة لها فى تعداد جنوب إفريقيا ، خاصة مع الفقر المدقع..

عامة يعيش أكثر الخوسا اليوم فى شرق إقليم الكيب ، لكنهم كذلك متناثرون فى القطر ..

ومن إحدى هذه القرى تبدأ قصتنا ..

★ ★ ★

فى سن الخامسة عشرة تزوجت (مانديسا) من (بيكيتشا) ابن (مابوتو) .. لاتوجد أسئلة حول الحب أو المقت هنا .. الفتاة تذهب لبيت زوجها ولا تعرف هى نفسها رأيها فيه .. لاوقت لهذه التفاهات ..

خلال أربعة أعوام كان الأطفال يحاصرونها ، وقد انتهت حياتها فسيولوجيًا عند هذا الحد .. حملت وأنجبت وأرضعت وأجهضت مرارًا وبدا أنها فى الأربعين ..

كان (بيكيتشا) فقيرًا ، وكان يمارس كل الأعمال تقريبًا ، لكنه كان يرعى الماشية للآخرين أكثر الوقت .. وعند نهاية اليوم يعود للبيت منهكًا ثملاً فيتناول عشاءه ، ويضربها ثم ينام كالقتيل حتى الصباح ..

هذه هى الحياة كما تعرفها ولا تعرف حياة أخرى .. أبوها كان يعود للبيت ثملاً فيضرب أمها .. ولا شك أن ابنها البكر (سانديل) سوف يعود لبيته ثملاً ليضرب زوجته ..

الآن هى تجر فى عنقها ستة أطفال .. معدل خصوبة مرعب .. لا تعرف كيف ستربى هؤلاء لكنها على الأرجح ستنجح .. لقد ربى أبوها عشرة أطفال ، وهو لم يكن أكثر ثراء .. فى هذا المجتمع يُربى الأطفال كالدجاج .. تطلقه فى الصباح وتتركه يبحث عن رزقه ، وتنسى أمره حتى المساء فإذا غربت الشمس فتحت باب (العشة) ، ووقفت تنتظر محاولاً تذكر هل كانت تسع دجاجات أم عشرًا ؟

كانت الحياة تمضى .. أحيانًا كان (بيكيتشا) يعطيها مالاً ، وأحيانًا كان يفضل أن يبقى المال لنفسه ليبتاع خمرًا .. كان يعتقد أن الحياة تعاديه شخصيًا لهذا كان يشرب الخمر على سبيل التحدى .. ولا يعرف إن كان سعيدًا أم لا .. لا يعرف إن كان شقيًا أم لا .. فمع كل هذا الفقر كان من الترف أن تعتقد أن لديك مشاعر وتحللها ..

كانت تسمع عن مدينة ثرية فى (دربان) .. تسمع عن (جوهانسبرج) التى تمشى فيها سيارات فاخرة ، وحيث يشاهد الناس الأفلام فى قاعات كبيرة مكيفة ، وحيث يلعب الأطفال الأصحاء فى ملاعب نظيفة مشمسة .. كانت تسمع عن أشياء كثيرة لكنها كانت مؤمنة أن هذا هراء .. نحن نأتى الحياة لنتلقى الركلات ثم نموت ..

فى الصباح تطعم الدجاج المتناثر حول الكوخ .. ثم تعد معجون الكاسافا للأطفال .. تذهب إلى أمه العجوز المشلولة الجالسة فى الظلام للأبد فتدس فى فمها بعض العجين .. فى هذا الوقت يكون (بيكيتشا) نائمًا .. يصحو عندما تتوسط الشمس السماء ؛ فيلتهم بعض الكاسافا ثم يتسلى بمشاهدة الديكة التى يربيها للمصارعة .. هذه من مصادر الدخل المعقولة للأسرة .. إنه يجرى الرهان بين أصدقائه ويربى أفضل أنواع الديكة ..

عندما يدنو العصر يرحل ..

لا تعرف ما يفعله ولا أين يذهب ، لكنه يتأخر حتى يقترب الفجر .. وعندما يعود تكون رائحة فمه لا تطاق .. يجرها من شعرها وهى نائمة على الأرض وسط الأطفال ، ويوجه الركلات لخصرها وساقيها بلا سبب واضح .. يستغرق هذا نحو نصف ساعة ثم يلتهم العشاء ويغنى أغانى حزينة .. ثم ينام ..

فقط فى بعض الليالى يترك لها بعض الراندات .. الراندات كما تعرف هى عملة جنوب إفريقيا .. وهو لا يترك لها ما يكفى أبدًا لهذا تستدين أحيانًا أو تتسول أو تسرق لو استطاعت ..

كانت تسمع عن أصدقائه .. كلهم مثله أو أسوأ .. وكان يقال فى القرية أنهم قطاع طرق وأنهم يخرجون مسلحين لمهاجمة السيارات عاثرة الحظ .. لم تستبعد هذا ، خاصة وهى قد فتشت ذلك الكيس الذى يداريه فى ركن الكوخ وراء جرار الماء ، فوجدت أن الكيس يحوى ساعات معصم وأجهزة لا تعرف ما هى لكنها تبدو ثمينة .. هناك حافظة فتحتها فوجدت بطاقة من الورق المقوى عليها صورة امرأة شعرها أشقر مثل البوبر ..

من أين جاء بهذه الأشياء ؟

سرقها طبعًا .. توقعت هذا وتقبلته على الفور لأنها تتفهمه ولأنها تسرق كثيرًا جدًا .. فقط هى تسرق لتطعم أطفالها ، لكن ماذا يفعله هو بالمال ؟

الحق إن الفقر جعل حياتها خشنة إلى حد لا يصدق .. ولو كانت تملك أدنى فكرة عن حياة أفضل لفقدت صوابها .. كل ما كانت تعرفه هو أن (بيكيتشا) يزداد خشونة وقسوة ..

قلنا إنها لم تكن تملك فكرة عن حياة أفضل ، لكنها بالتأكيد تملك فكرة عن حياة أسوأ .. حياة تسلب فيها مدخراتها القليلة التى تحتفظ بها فى كيس تداريه خارج الكوخ ، وتدفنه بعناية .. مجموعة القواقع التى جمعتها وهى طفلة وظلت تحتفظ بها كل هذه السنين ، ومجموعة الأشياء التى أعطتها لها أمها .. لا تعرف قيمتها ولا نفعها لكنها تحبها فعلاً .. وماذا عن أطفالها ؟ إنها تحبهم بجنون ولا تتصور أن يحل أذى بواحد منهم .. عندما تعيد التفكير فى الأمر تدرك أنها ثرية فعلاً .. لديها أشياء كثيرة تخاف عليها .. لم تصل بعد إلى حالة (الكارما) البوذية المثلى عندما لا تخاف على شىء لأنك لا تملك أى شىء ..

كانت هذه حياتها وقد توقعت أن تستمر على هذا المنوال للأبد ..

لكنها كانت مخطئة ..

★ ★ ★

(٢)

هناك لحظة يكف فيها الوغد عن أن يكون وغدًا ويتحول إلى أحمق .. إلى مجنون .. إنها اللحظة التى يضغط فيها على أعصاب من معه أكثر من اللازم .. لحظة تتلخص فى عبارة (اتق شر الحليم) ..

وقد بدأ كل شىء عندما عاد (بيكيتشا) من الخارج ثملاً كالعادة .. لم يتكلم ولم يقل شيئًا .. أحيانًا كانت تعتقد أنه أخرس .. لو أصابه الخرس فلن تعرف أبدًا ..

كل ما فعله هو أن جلس فى الكوخ يلتهم العشاء ، وكان أن طفلتها (ندينِدى) ذات السنوات الثلاث راحت تلعب من حوله ، ثم اتجهت وهى تغنى إلى قارورة الماء الموضوعة على الجريدة التى يطعم عليها ورفعتها محاولة الشرب .. لم يكن تحكم الطفلة كاملاً لذا أسقطت القارورة على أبيها ..

كان الظلام دامسًا لا تضيئه إلا تلك الشمعة .. وبعينين لا تصدقان رأت (مانديسا) ذلك الحيوان يوجه صفعتَين للطفلة ، ثم – من دون انفعال ولا كلمة أخرى – يمسك بكفها الصغيرة ويضعها على لهب الشمعة !

كان ما حدث بعد هذا غير قابل للوصف ..

صراخ الطفلة الهستيرى الذى انتقل كالكهرباء إلى إخوتها الأربعة .. عواء (مانديسا) وهى تصرخ كالضباع محتجة وتحتضن الطفلة إلى صدرها .. ثم سيل الشتائم الذى انطلق من فم (بيكيتشا) ..

ينهض الرجل ويركل زوجته .. ثم يركل الأطفال .. ثم يركل كل شىء .. لابد أن نوبة الهياج استمرت عشر دقائق كاملة .. كان ثورًا هائجًا ، وقد أشعلت غضبه كل هذه الضوضاء السمعية والبصرية ..

أخيرًا – كأى ثور هائج – راح ينفخ من منخريه ، وخرج مترنحًا إلى الخارج .. ثم استلقى على الأرض وصدره يعلو ويهبط ، وراح فى نوم عميق ..

قضت هى أسود ليلة فى حياتها لأن إصابة (ندينِدى) كانت بالغة جسديًا وروحيًا ، وقضت الليل تدلك الحرق فى كفها بأحد الزيوت التى أخذتها من أمها .. نام الأطفال أخيرًا فقررت أن تبحث عن المزيد من الأشياء النافعة التى تركتها لها العجوز الطيبة .. خرجت إلى الظلام وهى تسمع صوت زوجها يغط بصوت عال من الناحية الأخرى ..

راحت تنبش الأرض حيث كان الكيس .. تنبش .. تنبش ..

لكنها منذ اللحظة الأولى أدركت أن هناك شيئًا ليس على ما يرام .. الكيس ليس كما تركته ..

عندما خرج الكيس ملوثًا بالغبار مليئًا بالحصى ، أدركت أنها قد سرقت .. القواقع غير موجودة .. الراندات غير موجودة .. لا توجد سوى قنينة أو قنينتين ..

من فعل هذا ؟ هى تعرف يقينًا ..

لماذا سرق القواقع ؟ بالطبع لا سبب سوى إيذائها .. فهى لاقيمة لها ، ولم تعرف عنه يومًا أنه مولع بأى شىء جميل .. هكذا تعرف الآن أنها فقدت كل ما هو جميل فى حياتها .. القواقع .. المدخرات .. ابنتها احترقت أمامها ..

الآن فقط يمكن القول أن (بيكيتشا) قد ارتكب غلطته الكبرى .. لقد حكم على نفسه بالإعدام ، وهو قرار غريب عندما يصدر من واحدة مذعورة بائسة مثل (مانديسا) لكن الرجل لم يتصف بالحكمة يومًا..

ذهبت إلى داخل الكوخ واختارت مدية عملاقة .. سوف تعملها فى عنقه وينتهى كل شىء ..

لكن لا .. هى أولاً تخشى أن تتخلى عنها قواها فى اللحظة الرهيبة.. تقطع وريدًا ثم تعجز وينهض الوحش ليفتك بها .. ثم

إنهم سيعتقلونها .. سيأتى رجال الشرطة ليقبضوا عليها وتترك الأطفال وحدهم .. هناك من سيعنى بهم لكن من هو ؟

كلا .. لن تفقد هؤلاء فى لحظة حماقة عابرة ..

هكذا تحركت غريزتها فى الاتجاه الوحيد الذى تسلكه الأنثى عندما تريد القتل.. السم ..

إنها تعرف أن لديها تلك القنينة التى تحوى الزيت .. هى الشىء الوحيد الذى لم يسلبها إياه وقد ورثتها من أمها .. أمها حذرتها مرارًا من هذا الزيت وحكت لها عن أشخاص تتعفن أكبادهم وهم أحياء .. الأطفال لا يتأثرون بهذا السم لسبب لا تعرفه .. قالت لها أمها أن عليها أن تحتفظ بالقنينة لأنها ورثتها من أمها هى الأخرى ، لكن عليها أن تخفيها..

وهكذا فتحت الزجاجة .. تشممت الزيت فلم تجد له إلا رائحة الخردل .. رائحة ليست بالكريهة أبدًا ..

وفى اليوم التالى أعدت عشاء شهيًا لزوجها ، ولم تذق لقمة واحدة .. لن يسألها لأنه اعتاد ألا يراها تأكل أمامه .. فعلت الشىء ذاته فى اليوم الذى بعده .. واليوم الذى بعده .. قطرات من الزيت العتيق على الطعام تعطى نكهة ممتازة فعلاً.. كان

الأطفال يأكلون مع زوجها أحيانًا ، وهكذا لم يكن ليخطر بذهنه لحظة أن زوجته الخائفة المذعورة قد صممت على قتله ..

★ ★ ★

الأيام تمر ..

وقد أدركت أن التأثير فعال فعلاً عندما سمعت أنفاسه وهو نائم .. هذا صدر رجل يغرق فى بحر عميق ويحاول أن يلتقط شهيقًا واحدًا ..

ألم شديد فى عينيه .. إنه لم يعد يبصر تقريبًا ولا يكف عن فرك عينيه ..

قدماه تورمتا كثيرًا .. حتى لم يعد قادرًا على ارتداء صندله الذى عاش معه أعوامًا .. اضطر لشراء صندل جديد .. ثم بدأت بطنه تنتفخ ..

قال لها وهو يتحسس بطنه :

- « لا أدرى .. هل أصبت بالبلهارسيا ؟ »

إن البلهارسيا موجودة فى جنوب إفريقيا .. لكنها لا تتصرف بهذا الشكل ..

قالت له وهى تبتعد كى تفلت من قبضته:

- « إنها الخمر .. رأيت مخمورين مثلك تنتفخ بطنهم وتصفر عيونهم ثم يموتون .. »

لكنه لم يصدق .. ذهب لطبيب القرية عدة مرات ، واستمر على منوال رحلاته الغامضة التى كانت تجد آثارها فى الكوخ .. يبدو أنه لم يتوقف عن السطو لحظة واحدة ، لكن صحته كانت تتدهور يومًا بعد يوم..

وفى النهاية قال لها :

- « أنا أشعر بأننى ...... »

ثم سقط على الأرض وصدره يعلو ويهبط .. حتى العبارة التى قالها استهلكت قواه ..

استغاثت بالجيران وجرته جرًا غير رفيق إلى المستشفى ، بعدما تركت ستة الأطفال فى عهدة (نوسيكينى) العجوز ..

كان الجيران يتحدثون عن مستشفى حديث يدعى (سافارى) .. مستشفى يعمل فيه أطباء من كل أرجاء العالم ولا يتقاضى مليمًا .. هكذا أصروا على أن تحمل زوجها إلى هناك .. لم تكن راغبة فى تقديم أى عون له ، لكنها كذلك لم تكن راغبة فى إثارة علامات استفهام حولها لذا وافقت ..

لو فكر أحد هؤلاء فى السم فلسوف تخبره أن أطفالها أكلوا نفس ما أكله زوجها ومازالوا بخير ..

لكن لم يبد أن الأطباء هناك يعرفون ما دهاه..

جو عام من الحيرة أحاط بها منذ وصلت إلى المستشفى .. هناك طبيب غربى أحمر الوجه فحص زوجها بعناية ثم نادى طبيبًا آخر أقرب إلى السمرة وله لحية قصيرة تحيط بفمه .. نظر لها الطبيب الشاب ثم نظر إلى زوجها نظرة عابرة ، واعتذر كما يبدو لأن وقته لا يسمح بفحص الحالة .. هذا ما فهمته من الإيماءات لأنهم جميعًا يتحدثون لغة لا تعرفها .. رأت الطبيب الشاب منحنيًا على فراش به فتاة سوداء مضمدة قد وصلت بجسدها النحيل عشرات الخراطيم والأنابيب ، وكانت تقف معه ممرضتان .. التفت إلى الوراء ثم شد الستار ليحجب الرؤية عن (مانديسا) ولسان حاله يقول : ليس هذا سيركًا يا امرأة ..

كان زوج (مانديسا) الآن على الفراش أقرب إلى قربة ماء مربوطة من أعلى .. الهواء يدخل رئتيه بصعوبة بالغة محدثًا صوتًا كصوت النارجيلة كما نعرفه نحن .. وينظر لها نظرة صامتة لعلها تقول: ساعدينى .. لكنها لا تبادله النظرات ..

تمر الساعات .. يبدو أن الفراش الذى كانت عليه الفتاة السوداء قد صار خاليًا الآن ..

تنظر (مانديسا) إلى باب العنبر لتجد ثلاثة رجال شرطة يلتفون حول ذلك الطبيب الشاب الملتحى ، ويبدو أنهم فى مناقشة حامية جدًا .. من حين لآخر يخرج كاميرا صغيرة ويعرض عليهم شيئًا فيها .. ثم تعود المحادثات .. هل يتكلمون عن زوجها أم عن المرأة السوداء النحيلة أم ماذا ؟

الطبيب أحمر الوجه كان أكثر انهماكًا وفعل لزوجها الكثير ، ويبدو أنه ترك كل أعماله الأخرى كى يجد حلاً لهذه المعضلة .. لقد جلب عددًا من الأطباء السود أو الغربيين كلهم أشيب الشعر بادى الحكمة .. وجاء رجل أسود مغرور سألها بلغة (الخوسا) عن تفاصيل ما حدث لزوجها ، ثم راح ينقل ما تقول للأطباء الغربيين ..

كانت ترد بغباء .. لا بأس فى أن تكون غبية ، واليوم هى أحوج ما تكون لغبائها هذا ..

وفى الثامنة مساء راح زوجها يسعل الكثير من الدم ، ثم أطلق شهقة طويلة ومات ..

★ ★ ★

كانوا ينقلون الجثة عندما عدت إلى د. (ماكفادين) .. للأسف لم أر المريض ولم أفحصه.. إن رجال الشرطة الذين يحققون فى حادث قطع الطريق لم يتركونى فى سلام لحظة واحدة اليوم.. دعك من حالة (جوجو دلامينى) التى أرهقتنى وأدمتنى .. الحقيقة أننى كنت فى حضيض حالتى المعنوية ..

قلت له وأنا أجفف عرقى :

- « لا أفهم سر اهتمامك البالغ بهذه الحالة .. أعرف أن كل حالة مهمة ، لكنك تتعامل مع هذا المتوفى كأنه لغز الألغاز .. »

قال (ماكفادين) وقد بدا عليه القلق :

- « هو كذلك .. تورم عام فى الساقين واستسقاء وارتفاع فى ضغط العين .. القلب منتفخ عاجز عن ضخ الدم .. الأوردة كلها متسعة وقد احتشد الدم فيها .. ضغط الدم منخفض .. لم أر هذا المشهد إلا فى داء (بيرى بيرى Beri Beri) الناجم عن نقص فيتامين ب ١ .. »

- « إذن فليكن الأمر كذلك .. »

- « لا أجد أثرًا لالتهاب الأعصاب المميز لداء بيرى بيرى .. »

ثم فكر قليلاً وأضاف :

- « هل تعرف ؟ هناك مرض اسمه (الاستسقاء الوبائية) .. وصف فى كلكتا عام ١٨٧٧ .. وفى جزر فيجى عام ١٩٢٦ .. هناك حالات كثيرة ظهرت هنا فى جنوب إفريقيا .. فى البداية لم يكن أحد يفهم سببه .. فجأة مجموعة من الأشخاص تتورم أرجلهم وبطونهم ويصابون بهبوط فى القلب .. ثم يموتون .. عرفنا السبب فيما بعد وهو زيت (الأرجيمون) المستخلص من الخشخاش الطبيعى .. إنهم يستعملونه فى إعداد (الكارى) .. هذا الزيت هو سبب هذه المشكلة التى اصطلح الأطباء على تسميتها (الاستسقاء الوبائية Epidemic dropsy) ، ومن الغريب أن هذا الزيت يؤثر فى الكبار ولا يؤثر فى الأطفال أبدًا .. وعندما نجد المريض فى أيدينا لا نملك له إلا أدوية الحساسية والفيتامين (سى) وحقن الكالسيوم .. »

قلت وأنا شارد الذهن غير مهتم جدًا بهذه المحاضرة :

- «وما المشكلة فى أن يكون هذا الرجل حالة أخرى ؟ »

- «قلت لك إنه مرض وبائى .. أى أنه يجب أن تجد عددًا من الناس أصيبوا به فى وقت واحد .. بينما هذه حالة فردية .. لا أعتقد أن هناك من دس له هذا الزيت خصيصًا فى طعامه .. الحياة ليست بهذا التعقيد .. »

ثم هز رأسه فى قنوط :

ـ « هناك تحليل كروماتوجرافى للبحث عن هذا الزيت فى دمه ، لكنه غير متاح لنا.. أعتقد أننا سندفن هذا الرجل وننسى القصة كلها .. »

ثم سألنى كى يغير الموضوع :

ـ « هل من أخبار عن حادث قطع الطريق ؟ هل وجدوا الجناة ؟ »

كانت المحفة تمر جوارى وعليها جثة ذلك الرجل صاحب الميتة الغامضة ، فأفسحت لها الطريق وقلت بينما المحفة تبتعد فى الممر :

ـ « لا .. نحن لا نشكل حالة فريدة وسط طوفان الجريمة المحيط بنا ، لكن هناك علامات مرضية واضحة التقطتها عينى وعدسة الكاميرا فى واحد منهم .. وأعتقد أننى لو وجدته على بعد مائة متر منى لعرفته على الفور .. »

وابتسمت فى ذكاء ..

★ ★ ★

(مانديسا) عادت لدارها فى المساء ..

كانت خالية تمامًا صامتة تمامًا ..

إن جثة زوجها الآن فى دار زعيم القرية حيث سيتم دفنه فى الصباح ..

هى الآن حرة .. لن يؤذيها أحد .. لن يركلها أحد .. لن يسرق مالها أحد ..

لو كان (بيكيتشا) حيًا لكان هذا موعد عودته للكوخ .. يتناول عشاءه ويوسعها ضربًا ثم ينام .. منذ اليوم لن يضربها أحد ولن تعد العشاء لأحد .. البيت والأطفال مسئوليتها ..

إنها حرة ..

كم أن هذا رائع !.. كم أن هذا قاس !... كم أن هذا مخيف !

لم تكن قد جربت قط أن تكون مسئولة عن نفسها .. هناك دومًا من يكلفها بأشياء ويرهبها ويهددها .. هناك من يرسم لها حياتها فى كل لحظة ..

مع ساعات الليل بدأت تدرك حقيقة الموقف .. (بيكيتشا) لن يعود أبدًا ..

أطلقت عواء طويلاً . وغطت رأسها بيديها وتكومت فى ركن الكوخ وراحت تنشج:

ـ « (بيكيتشا) !.. أين أنت ؟ أنا بحاجة إليك !.. أنا بحاجة إليك !.. لماذا رحلت أيها الخائن ؟ »

★ ★ ★

- حكاية الصحفية التى قررت أن تتكلم

(١)

فى نهاية الخريف من كل عام يرى سكان الناتال ظاهرة يحسدهم عليها سكان العالم .. سباق السردين ..

فى هذه اللحظة تهاجر أسراب السردين من جنوب القارة العجوز ، عند نتوء ذقن الجمجمة .. متجهة إلى الشمال نحو الناتال ..

هكذا لا يصير بوسعك أن ترى البحر .. يتحول اللون الأزرق إلى كتلة فضية لها مليار رأس وعين وذيل .. ويزداد الصخب عندما تكتشف الحيتان وأسماك القرش هذه الوليمة ، فتهرع للظفر ببعض السردين ، وتحلق الطيور فى السماء كأن اليوم هو إعلان الحرب على الأزرق .. الأزرق السماوى تقهره النوارس والأزرق البحرى تقهره أسراب السردين..

وككل أسرار الطبيعة العظمى ، تكتفى الطبيعة بإثارة دهشتك وذهولك لكنها تفضل الصمت عندما تسألها عن سبب هذه الهجرة الغريبة .. تبتسم فى خبث وتستدير مبتعدة قائلة : خمن !

★ ★ ★

وكانت (جوجو) تقف هناك مع (مبوجو) .. كان يصر على أن يأخذها كل عام إلى هناك ليريا هذا المشهد .. هذا هو العام الثالث

لهما معًا ، وقد كان (مبوجو) شاعرًا رقيقًا يكتب قصائد رائعة بلغة الزولو .. كتب عن عينيها الكثير جدًا .. كتب عن شفتيها .. قال لها إنها الجمال الأسود كما أراد له الله أن يكون ..

هناك كانا يقفان على الشط فى (ديربان) ويراقبان المشهد المهيب عندما يتحول الماء إلى أسماك سردين بمعجزة ما .. السردين يلمع كالفضة حتى الأفق .. والنوارس تحلق هنا وهناك .. مشهد قلما رآه أحد خارج جنوب إفريقيا .. من الخطر أن تركب زورقًا لتقترب لأن السردين يلعب بالفعل دور أعتى العواصف .. تلك الكتلة الهائلة التى لا عقل لها ، والمصممة على الرحيل إلى الشمال ، قادرة على أن تقلب أى قارب ..

هكذا يقفان .. ويتنهدان ..

إنهما ينتميان لهذه الحياة .. إنهما جزء منها .. جزء من هذه العظمة الربانية التى لا تجرؤ عندما تراها على أن تتكلم عن إحباطاتك الشخصية .. أية إحباطات ؟ لا تكن طفلاً سخيفًا .. إن الله يمنحك هذا العرض المجانى المذهل وبرغم هذا مازلت قادرًا على أن تتذكر صعوبات العمل وضخامة حجم أنفك ومشاكلك الصحية ؟ إن هذا لا يصدق ..

من بعيد تظهر زعنفة حوت جاء ليعب بعض السردين .. الحيتان اليوم فى أمان تام بعد ما كان رصيف هذا الميناء مكانا لذبحها .. إنه يبتلع مياه البحر فى فمه ، ثم يغلق

أسنانه الشبيهة بالشبكة ويطرد الماء منها فلا يبقى بالداخل إلا السمك .. ثم يطلق زفيره الكثيف من الثقب فى أعلى رأسه .. ويغوص راضيًا ..

تتقلص يد (مبوجو) على يدها .. إنها اللحظة .. عندما يتناغم حبهما مع الكون ذاته ولا يصير هناك أنا وأنت بل أنا فقط .. يمكنها أن تسمع أفكاره بوضوح تام فى رأسها .. تشعر بالكريات الحمر تضرب جدران بطينه الأيسر .. ترى الومضات العصبية الخارجة من المخيخ ، وقطرات الأدرينالين تنساب فى دمه من غدته فوق الكلوية .. السردين يسبح فى دمه .. هناك حوت يزفر فى عينيه .. النوارس تخرج من أذنيه ..

سيقول لها أنه يحبها ..

ـ « أنا أحبك .. »

ثم يقول لها أنه لا يتصور الحياة من دونها :

ـ « لا أتصور الحياة من دونك .. »

إنها واقفة جواره لكنها تغرق فى بحر الحب وسط أسماك السردين اللامعة ..

كانت (جوجو دلامينى) صحفية فى الرابعة والعشرين .. انتقلت لتعيش فى (ديربان) من فترة برغم أنها بدأت حياتها فى قرية صغيرة مجاورة لها .. درست الصحافة فى

(جوهانسبرج) ثم عادت حالمة بأن تلعب دورًا مهمًا .. إن الصحافة فى هذا البلد نشطة جريئة وحرة .. وبرغم أنه آخر بلد فى العالم يدخله التلفزيون ، فإن هذا الجهاز صار أداة مهمة نشطة ، وأنشئت قناة بلغة الزولو عام ١٩٨١ .. وقد وجدت أن عملها كمحررة تلفزيونية يمكن أن يوصلها إلى عينات أكبر من البشر ..

هذه المهنة جعلتها تقابل (مبوجو) الصحفى الشاب مثلها الذى ينتمى لقبائل الزولو ، والذى اكتشف أنها أروع من مشى على الأرض منذ الخليقة .. ثم قابلت (نلسون مانديلا) شخصيًا ، وكانت تعتبر من المستحيل أن ترى هذا العجوز الأشيب الأسطورى يمشى على الأرض ..

كان من العسير أن يتزوجها (مبوجو) الآن .. لذا أعلنا خطبتهما وهى ذى ثلاث سنوات قد مرت ، وصار عليهما أن يتخذا خطوات جدية ..

كانت عفيفة طاهرة ، والحياة رائعة الجمال .. لم تتصور قط أن لها جانبًا أسود برغم أنها تكتب عنه بانتظام كصحفية.. كان هذا الجانب الأسود يحدث للآخرين فقط ، وأنه مجرد وسيلة لجذب القراء .. ويبدو أن الحياة قد وجدت أن الوقت قد حان لبعض الدروس القاسية ..

فى هذا الوقت بالذات حدثت لها قصة أليمة .. لقد دخلت بسيارتها الصغيرة طريقًا فرعيًا منعزلاً قرب حدائق (كروجر) ، فهاجمتها عصابة من قطاع الطرق .. خمسة رجال سود سدوا الطريق أمام سيارتها بالصخور ، وسلبوها مالها .. لكنهم لم يكتفوا بذلك بل اصطحبوها إلى الدغل وسلبوها شيئًا آخر ، ثم ألقوها على الطريق العام وتواروا ..

كانت تجربة مروعة هزت كل شىء فى العالم من حولها .. إن محاولة وصف مشاعرها لهو عمل أقرب إلى البلاهة .. وكما قال تشيكوف : إن أبلغ المواعظ التى تقال على قبور الموتى لاتعنى أى شىء بالنسبة للأرامل واليتامى .. هى مجرد كلمات خالية من التأثير .. هكذا يصير الكلام أحيانًا تصرفًا غير أخلاقى ..

قضت البائسة أيامًا طويلة فى عزلة ، ثم قررت أن أمامها خيارين .. إما أن تنتحر أو تنتصر .. وقد اختارت الحل الأخير وعادت للكتابة ..

لم تصارح (مبوجو) بالتجربة المريعة التى خاضتها .. كانت تعرف أن هذا سيدمر حياته للأبد .. على الأرجح سيجن جنونه ويخرج باحثًا عن هؤلاء الأوغاد .. ولن يجدهم .. ولو وجدهم سيفتكون به .. من الخير أن تصمت ..

فقط قدمت بلاغًا لرجال الشرطة أدلت فيه ببعض أوصاف من هاجموها .. لم يكن هناك الكثير مما يقال فيما عدا أن

أحد الرجال كان متورم القدمين والبطن بشكل ملحوظ ، ويبدو أن قلبه مريض لأنه لا يستطيع التنفس بسهولة .. لم يكن هذا دليلاً قويًا خاصة أن ملفات الشرطة لا تحوى مشتبهًا فيهم بهذه المواصفات .. فقط وعدوا بأنهم سيزيدون من دورياتهم فى هذه الطرق الجانبية .. إن لديهم مشاكل كثيرة جدًا ولن يهتموا بمشكلتها لمجرد أنها هى ...

قال المفتش (جاكوب زوما) :

ـ «نحن لا نكف عن نصح الناس بأن يأخذوا الحذر .. لكنهم لا يصدقون .. يحسبون أننا نتظاهر بالأهمية .. وهذا البلد شاسع مترامى المساحات ومن المستحيل السيطرة على كل شبر فيه .. »

ثم تحاشى نظراتها وراح يدون شيئًا فى مفكرته قبل أن يقول بلهجة ذات معنى :

ـ «لا أريد أن أثير ذعرك .. لكنى أذكرك بإجراء اختبارات HIV .. يجب التأكد من أن الإيدز لم ينتقل لك !»

★ ★ ★

(٢)

جالسة فى الردهة الطويلة فى وحدة (سافارى) تشم رائحة المطهرات (لو كانت للموت رائحة فهى هذه) ، وتراقب الممرضات رائحات غاديات .. كانت تشعر بتوتر غير مسبوق .. دعك من هستيريا المستشفيات المألوفة التى تشعرها بأن كل شىء ملوث .. كل شىء مريض يفضى للموت ..

فى نهاية الممر رأت تلك الطبيبة اللطيفة .. إنها نحيلة جدًا تضع العوينات ويبدو أنها إيطالية .. كانت تمشى مع طبيبين آخرين .. أحدهما أسمر له لحية قصيرة معتنى بها ، والآخر أشقر ضخم..

وكانت الطبيبة تحمل أوراقًا .. وكانت تحمل على وجهها تعبيرًا مقلقًا ..

★ ★ ★

عندما جلس الثلاثة حولها ، صارحتها الطبيبة التى تدعى (سيمونيتا) بأن التحاليل إيجابية .. لقد انتقلت لها العدوى فعلاً ...

ـ «لا أعرف كيف أقولها .. لكن الإصابة بالفيروس لا تعنى الإصابة بالإيدز .. هناك عدد لا بأس به من المرضى لا تتطور حالتهم أكثر من ذلك .. ولعلك واحدة من هؤلاء .. »

كان من الواضح أن الطبيبين جاءا معها لأنها لا تريد القيام بهذه المهمة العسيرة وحدها ..

وقد تدخل الطبيب الشاب الذى قدم نفسه باسم (علاء) وقال :

ـ «ما نعنيه هو أن تمارسى حياتك بشكل طبيعى لكن لتبقى على اتصال بنا .. »

كانت تسمع هذا الكلام وتحاول أن تعيه ، لكن النتيجة كانت مرعبة .. أن عينيها تتسعان كأنما هى موشكة على الجنون وقد راحت تحرك رأسها ذات اليمين واليسار مرددة :

ـ «لماذا أنا ؟ لماذا أنا بالذات ؟ لم أفعل شيئًا .. »

كأنها تحاول طرد المعلومات الرهيبة من رأسها ..

ثم انفجرت فى البكاء ، فلم تدر متىٰ ولا كيف وجدت أنها نائمة على كتف الطبيبة الإيطالية ، وهى تمسد شعرها وتهمس لها :

- « لا ذنب لك على الإطلاق .. لا ذنب لك .. أنت نقية كماء النبع .. لن يحدث لك شيء سيئ .. »

قال الطبيب الروسى :

- « للأسف نقابل حالات إيدز كثيرة جدًا أصيبت بهذه الطريقة .. الناس لا تريد أن تصدق هذا .. تعتقد أن الإيدز لا ينتقل إلا للسيئين الدنسين .. »

يبدو أنه تكلم أكثر من اللازم لأنها سمعت صوت (علاء) يطقطق بلسانه منذرًا ، ثم يقول مهدئًا :

- « نحن لن نتخلى عنك .. يمكنك أن تأتى لنا فى أى وقت .. »

هكذا انعقدت صداقة غريبة بين الصحفية السمراء الشابة وهذه المجموعة من الأطباء .. كانت تعرف الآن أن الإيطالية والروسى متحابان أو خطيبان .. المصرى متزوج من كندية لكنها هناك فى الكاميرون ..

اعتادت أن تتردد على وحدة (سافارى) مدعية أنها تريد إجراء بعض الفحوص .. لكنها فى الحقيقة كانت تبحث عن الدفء الإنسانى .. عن أشخاص يعرفون سرها ويضحكون لها .. كانت قد عرفت بموضوع العدوى منذ شهر لا أكثر .. مازال المرض فى بداية بدايته ..

وفى ذات أمسية مرت على الوحدة فقابلت د. (علاء) هناك فى مكتب الأطباء جالسًا مع ممرضة سمراء من الزولو .. فتاة رشيقة رائعة الجمال ، ولسبب ما شعرت بأن هذه الجلسة غير عادية لكنها آثرت الصمت .. انصرفت الممرضة التى كان يناديها (أونوابا) .. فجلست جواره وسألته :

- « هل أحببت من قبل ؟ »

- « أنا متزوج عن حب .. حب ملتهب حقيقى .. »

- « وهل تصارحها بكل شيء ؟ »

بدا كمن يفكر فى عمق .. يريد أن يكذب لكنه لا يستطيع .. فى النهاية قال لها مراوغًا :

- « عم تتكلمين بالضبط ؟ »

قالت شاردة :

- « (مبوجو) .. خطيبى .. أنا أهيم به حبًا لكننى لا أجسر على إخباره بموضوع مرضى ، ولا أجسر على إخباره بالطريقة التى أصبت بها .. »

داعب لحيته وقال مفكرًا :

- « اسمعى .. أنا لا أؤمن بأن كل شىء يجب أن يقال .. أحيانًا نتعرى كى ننال إعجاب الآخرين بصراحتنا فلا ننال إلا اشمئزازهم من عرينا .. هناك أشياء قد تدمر حياة الطرف الآخر لو عرفها .. الصراحة قد تكون حمقًا .. لكن الأمر يختلف فى حالتك لأننا نتحدث عن حياة (مبوجو) .. عن مستقبله .. ليس من حقك أن تخفى عنه مرضك لأن هذا سيزيد الأمور تعقيدًا فيما بعد .. يجب أن تخبريه بكل شىء وليتخذ قراره الصحيح .. »

- « وماذا تتوقع ردة فعله ؟ »

- «سيئة على الأرجح .. هناك احتمال ٩٨٪ أن تفقديه .. لكن لابد من أن تجتازى هذه المخاطرة .. فلو فقدته لاتتهمينى بأنى كنت السبب .. »

هزت رأسها فى قلق .. لم يقل لها إلا ما كانت تنوى عمله .. لكنها كانت بحاجة لمن يخبرها أنها ليست حمقاء .. إنها تخشى أن تندفع فى مواقف الاستشهاد هذه كأنها رواية رومانسية فرنسية .. لا تمقت شيئًا مثل التضحيات التى لا مبرر لها إلا النزعة الميلودرامية ..

★ ★ ★

وعندما سمع (مبوجو) القصة ظل صامتًا وقتًا طويلاً ..

قالت له فى قلق :

- « (مبوجو) ... لا تعذبنى بكل هذا الصمت .. تكلم .. أريد أن تتخذ قرارك هنا والآن .. »

نظر لها وكان يضغط على شفتيه ووجهه يتقلص ألمًا ، ثم بدأ المخاط يسيل من أنفه والدمع من عينيه كأنه بحاجة إلى سباك بارع أكثر من أى شىء آخر .. وهتف :

- «قرارى ؟ هل تسألين عن قرارى ؟ لو كنت فى مكانى فماذا تفعلين ؟ »

وقبل أن تتكلم كان يركض مبتعدًا وهو يغطى أذنيه .. يبتعد بين الأشجار فى ذلك المتنزه .. يبتعد نحو الأفق .. يبتعد .. يبتعد .. حتى صار نقطة سرعان ما ذابت ..

لقد جاءت إجابته كاملة بليغة جدًا ..

★ ★ ★

وسط الزحام الذى يملأ الردهة تشق طريقها متجهة إلى القاعة الرئيسة فى الفندق ، وقد علقت على الباب لافتة تقول :

القاعة أ : الوضع الحالى لداء الإيدز فى جنوب إفريقيا

موسيقا راقية تدوى فى الجو ، ورائحة عطرة لا تعرف مصدرها ..

تقف على باب القاعة المظلمة تنظر إلى الجالسين فى الظلام ، يلتمع عليهم الضوء الأزرق الخافت المنعكس من الشاشة .. هناك نحو ألف شخص فى هذه القاعة ..

المحاضر يتكلم بصوت خافت كئيب .. يقول وهو يشير بمؤشر الليزر إلى الشاشة :

- « الأرقام الرسمية تشير إلى أن خمس سكان جنوب إفريقيا مصابون بالإيدز .. ١٣٪ من مرضى الإيدز فى العالم موجودون هنا .. هناك ستمائة مريض يموتون بالإيدز يوميًا فى هذا البلد بالذات .. لكننا نعتقد أن الوضع أسوأ لأن مرضى الإيدز يفضلون الصمت حتى لا يقضوا أيامهم الأخيرة منبوذين اجتماعيًا .. وهذا فى حد ذاته ينذر بالمزيد من الانتشار .. »

تشق طريقها وسط الممر فى الظلام .. عيناها اعتادتا السواد نوعًا وهناك نظرات فضولية كثيرة تتجه نحوها .. من أين جاءت هذه الفتاة وماذا تريد ؟

الضوء الأزرق يلتمع فى عشرات العوينات المصوبة نحوها .. إنها تعتلى المنصة فى ثبات .. تمد يدها إلى المحاضر طالبة مكبر الصوت .. شىء فى نظرتها جعله يرضخ لها .. لم يقاوم أو يحتج .. بل نفذ كالمنوم مغناطيسيًا وتراجع خطوتين ليفسح لها المجال .. عندما تكون القوة النفسية كاسحة يعجز حتى رجال الأمن عن إنزالها برغم هذا الاعتداء الواضح على منصة المؤتمر ..

تناولت مكبر الصوت ونظرت إلى الجالسين وبصوت بدأ مرتعشًا ثم بدأ يثبت قالت :

- « أنا أدعى (جوجو دلامينى) .. من الزولو .. أنا صحفية .. وأنا مصابة بالإيدز .. »

ساد الصمت ثم بدأت الهمهمة تتعالى ، فقالت بذات الصوت الثابت :

- « أقولها بوضوح وصراحة .. يجب أن يتكلم مرضى الإيدز ويعلنوا عن أنفسهم .. وأنا أقول لكم بثبات إننى مصابة بالإيدز لكن لا ذنب لى فى إصابتى .. »

وعندما انتهت تركت المنصة للمحاضر ، ونزلت وقد تخلت عنها شجاعتها السابقة ولم تعد تشعر إلا بإعياء شديد .. إن

الأدرينالين يسيطر على أجسادنا بطريقة غير عادلة وعندما يتركها فإنها تكون أقرب إلى خرقة بلا حيلة .. راحت أضواء الفلاش تلتمع عليها حتى صارت فترات الظلام قصيرة جدًا..

طبيب غربى يبدو أنه بريطانى دنا منها بعد المحاضرة وصافحها فى حرارة وقال :

- « أنا أحب الشجاعة حيثما كانت .. وأنت شجاعة جدًا يا مس (دلامينى) .. »

وقالت لها امرأة سوداء شائبة الشعر :

- « أنا أرأس جمعية لمساعدة مرضى الإيدز.. وكنت أبحث عن امرأة شجاعة باسلة مصابة بهذا الداء .. كنت أبحث عنك ! »

لكنها كانت تعرف أن معركتها بدأت ولم تنته .. إن حياتها قد انتهت أو على وشك ، لكنها مصممة على أن تنتفع بآخر أعوام لها .. يجب أن تبرهن للناس على أن الإيدز قد يصيب الآمنين .. يجب أن تشجع الصامتين على الكلام ..

★ ★ ★

وعندما عادت إلى قريتها كانت قد صارت مشهورة ..

أكثر من جريدة أظهرت صورتها على الصفحة الأولى ، وقد التقوا بها مرارًا على شاشة التلفزيون .. وكانت قد بدأت فى تعاطى عقار (النفيرابين Nevirapine) الذى يبطئ من هجمة الفيروس نوعًا ..

هناك كوخها حيث تعيش أمها وأختها .. الجيران يقفون خارج الأكواخ يرمقونها وهى تقترب حاملة حقيبة كتفها .. تفرد قامتها لتبدو أكثر ثقة وجرأة ..

إنهم أهلها .. جيرانها .. لن يتخلوا عنها أبدًا ولسوف يهنئونها على أنها لم تفضل الصمت ..

ضحكت وأشرق وجهها وهى تقف أمام هؤلاء الأعزاء ..

العجوز (ثابو مبيكى) جارها يقترب وهو يتوكأ على عكازه .. يقف أمامها .. ينظر لها فى ثبات ..

فجأة تشعر بالبلل على خدها .. من أين جاء ؟ لقد بصق عليها !

وسمعته يقول بصوته الغليظ :

- « ألم تستطيعى التزام الصمت أيتها الـ .... ؟ »

ووسط ذهولها سمعت امرأة تصرخ :

ـ «لقد أسأت لسمعة قريتنا فى كل مكان حتى فى التلفزيون !»

ـ «كل القبائل تشك فى بناتنا الآن ولن يتزوجهن أحد !»

جارها الطيب (شابير شيك) يبصق عليها بدوره ، ثم فجأة . بوم !...

تتلقى شيئًا ثقيلاً على جانب وجهها .. شيئًا مؤلمًا وشعور بالبلل يتزايد .. فجأة تتلقى ضربة أخرى !.. بوم .. ثم بوم !

إنهم يضربونها بالحجارة !

تحاول التماسك وتصرخ وهى تغطى وجهها :

ـ «أنا لم أرتكب ذنبًا ! أنا نقية كماء الينبوع !»

ـ «لا يوجد شخص نقى مصاب بالإيدز !»

وسقطت على ركبتها بينما الحجارة تنهال عليها .. كل واحد من جيرانها يقذفها بالحجارة .. حتى الأطفال حمل كل منهم حجرًا صغيرًا وجاء يشارك فى الحفل ..

حجارة .. حجارة .. متى تأتى النهاية ؟ لا يمكن أن يدوم هذا الألم إلى الأبد !..

أخيرًا جاءت الضربة الموفقة التى أطفأت المصباح فى رأسها (*)..

★ ★ ★

عندما فتحت عينيها ورأت الممرضات بشعار الرأس الأفريقى المميز على ستراتهن ، أدركت أنها فى وحدة سافارى وأنها لم تمت .. لابد أن الجيران قرروا ألا يتمادوا فى آخر لحظة ..

يا لهذا الصداع ! يا لهذا الصداع !

أدركت أن رأسها مضمد بشكل غير مسبوق .. كل جزء فى جسدها مضمد ..

ثم من بين الستائر برز لها وجه صديق .. وجه اعتادت أن تثق به وتحبه .. إنه (علاء) . الطبيب المصرى الشاب .. وفى عينيه رأت القلق ورأت خطورة حالتها..

قالت بصوت مبحوح :

ـ «لم أمت كما ترى ..»

ابتسم ابتسامة مقتضبة وراح يتأكد من تثبيت أجهزة المحاليل فى ذراعيها .. ثم تحسس نبضها وأدركت أن زاوية فمه ترتعش .. لماذا تفقد شجاعتك يا صديقى المصرى ؟

(★) هذه القصة المؤسفة حدثت فعلاً لناشطة فى مجال الإيدز تحمل الاسم نفسه ..

حاولت أن تنهض قليلاً لكنه صاح بها فى ذعر كى تظل حيث هى وأضاف:

- «لقد أجروا لك أشعة مقطعية على المخ ، وجراحة (Trephine) لتخفيض الضغط داخل الجمجمة .. لا تحاولى الحركة .. »

سألته وهى تنظر إلى وجهه الرفيق الوسيم :

- « أين الروسى وأين (سيمونيتا) ؟»

قال فى كياسة :

- «تعرضنا لعملية سطو مسلح منذ أيام .. يبدو أن السيناريو كان سيتكرر وقد تصدى (سيمياكوف) للمعتدين فأطلقوا عليه الرصاص .. إنه فى عنابر الجراحة الآن وهو بخير .. لكنه لن يستطيع القدوم للاطمئنان عليك .. »

- «يا للهول ! والبائسة (سيمونيتا) ؟ لابد أنها تجن قلقًا عليه ! »

- «لم تكف عن البكاء من ذلك الحين .. إن كل شىء ينهار من حولى حتى إننى لأشعر بالذعر .. »

هنا أطل الطبيب الأسكتلندى ذو الوجه الأحمر الذى لا تتذكر اسمه وقال لـ (علاء) :

- « هناك حالة غريبة على الفراش المجاور أريد أن تفحصها معى .. حالة استسقاء وهبوط فى القلب بلا سبب واضح .. »

قال (علاء) دون أن ينظر للخلف :

- « أرجو أن تعفينى من هذا .. إن هذه الحالة حرجة بما يكفى .. دعك من أنها صديقة شخصية لى .. »

وما لم يقله أمامها هو أن مخها ممزق فى عدة مواضع وأن حالتها خطرة فعلاً.. لا يعرف كيف أفاقت من الغيبوبة لكنها عائدة لها لا محالة .. وعلى الأرجح هى المرة الأخيرة ..

هكذا غادر الطبيب أحمر الوجه المكان .. وبقى معها (علاء) ..

قالت له همسًا وهى مغمضة العينين :

- «حتى لو مت الآن فأنا سعيدة .. لم أنتظر النهاية الكئيبة البطيئة التى يدخرها الإيدز لضحاياه .. »

ثم أضافت وقد صار كلامها أثقل :

- «شكرًا على كل شىء .. أنت كنت لى أخًا حقيقيا .. أنت .. »

ثم لم تستكمل كلماتها .. ونظر (علاء) إلى المرقاب فرأى أن نبضاتها تحولت لخط مسطح طويل.. خط يحكى قصة ..

يبدو أنه راح يصرخ وينادى الممرضات .. لابد أن عويناته تلوثت بالدمع هو يحاول .. لابد أن جراح الأعصاب جاء وهز رأسه فى يأس .. لابد أن علاء ركع على الأرض وغطى وجهه ...

لكنها لم تعرف بذلك ..

كانت هناك تسبح مع السردين الفضى البراق الأنيق حول رأس الرجاء الصالح.. حيث لم يعد الماء ماء وصارت السماء كتلة من النوارس الجائعة ..

ككل أسرار الطبيعة العظمى ، تكتفى الطبيعة بإثارة دهشتك وذهولك لكنها تفضل الصمت عندما تسألها عن سبب هذه الهجرة الغريبة .. تبتسم فى خبث وتستدير مبتعدة قائلة : خمن !

لكن الطبيعة ـ لسبب ما هذه المرة ـ أخذت (جوجو) من ذراعها وانتحت بها جانبًا ، وهامسة راحت تحكى لها السر .. سر هجرة السردين وأسرارًا أخرى لا حصر لها ..

★ ★ ★

حكاية الهولندى والبركان الغاضب

(١)

عندما قدمت الصحفية الشابة (جوجو دلامينى) بلاغها للمفتش (جاكوب زوما) لم يكن لديه وقت كاف لهذا ..

كان يعرف أن كل إنسان يعتبر مشكلته نهاية العالم وهو مستعد لفهم هذا ، لكنه يتلقى عشرات البلاغات المماثلة يوميًا فلا وقت عنده للتدقيق .. هى لم تقدم وصفًا مفيدًا .. قالت إن أحد هؤلاء المعتدين مصاب بمرض فى قلبه .. فهل هذا كاف ؟ لم تتعرف أى وجه من المسجلين خطرًا الذين رأت صورهم ، وكان يتوقع هذا .. فى كل يوم ينضم عدد لا بأس به من الهواة إلى محترفى الإجرام .. إن الفقر الذى يسيطر على البلاد قادر على كل شىء .. الفقر الذى يتجاور مع الثراء الفاحش هو الطريقة المثلى لتوليد الجريمة .. هكذا يولد السخط .. هكذا يولد الحقد .. هكذا تولد الجريمة ..

قال لها :

- «نحن لا نكف عن نصح الناس بأن يأخذوا الحذر .. لكنهم لا يصدقون .. يحسبون أننا نتظاهر بالأهمية .. وهذا البلد شاسع مترامى المساحات ومن المستحيل السيطرة على كل شبر فيه ..»

لقد ضاعفوا الدوريات على الطرق .. سيارات الشرطة فى كل مكان .. هناك كاميرات مراقبة تلفزيونية فى كل صوب .. لكن هناك دائمًا أحمق ما يصمم على أن يجتاز طريقًا مهجورًا وحده .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لا يمكن أن أعين شرطيًا لكل مواطن .. دعك من شرطى لكل سيارة .. إن جنوب إفريقيا قد فاز بلقب أعلى معدل لتحطيم السيارات وسرقتها فى العالم كله ..

لم يجد ما يقدمه لها سوى أن نصحها بأن تجرى اختبارات الإيدز .. كان ذا خبرة ويعرف أنها على الأرجح ستكتشف أنها أصيبت بهذا الداء الوبيل . لن تكون هذه أول حالة ..

الآن وقد انصرفت الصحفية نسى كل شىء عنها .. لن يتذكرها إلا بعد أشهر عندما يقرأ فى الصحف أن أهل قريتها رجموها بالحجارة لأنها تجاسرت على الاعتراف بأنها مصابة بالإيدز .. ولسوف تموت متأثرة بجراحها فى المستشفى ..

كانت مشكلته الحالية أدهى وألعن لأنها تتعلق ببركان موشك على الانفجار ..

★ ★ ★

كانت مزرعة (بيتر فان راين) مشكلة بالنسبة له ..

العجوز الهولندى اللعين الذى يعيش هناك مع أولاده الثلاثة هو آخر رمز باق لحقبة الأبارتايد Apartheid (التفرقة العنصرية) .. عجوز مثير للاشمئزاز .. فظ كأشرار السينما .. يؤمن إيمانًا مطلقًا بأن السود مجموعة من القرود وأن الرجل الأبيض عليه عبء حقيقى أن يحتل هؤلاء ويستعبدهم .. إن تعبير (عبء الرجل الأبيض White man's burden) قد انقرض من العالم كله ، لكنه حى يرزق فى مزرعة (فان راين) هذه .. والرجل يضفى على هذا التعبير طابعًا دينيًا كأنه لو لم يستعبد السود لحاسبه الرب على تقصيره ..

كانت المزرعة مترامية الأطراف تقع وسط محيط من بيوت الزولو الذين يكرهون الرجل بعنف ، لكنهم يعملون عنده .. علاقة بسيطة من المقت المتبادل لكنها لا تفضى لشىء خطير .. انتهت عهود إطلاق الرصاص والكلاب على السود ، وثورات السود التى تحرق مزارع الهولنديين ..

هكذا دارت عجلة الحياة بلا مشاكل .. إن الكراهية لا تعنى الحرب على كل حال ..

فقط بدأ كل شىء مع ذلك اليوم الذى مرض فيه أول طفل ..

كان ذلك فى نهاية العام ، وقد اجتمع الزولو فى قرية من قراهم المحيطة بالمزرعة يحتفلون احتفال اللحم المعروف

باسم (براى braai) ، حيث يلتهمون كميات من اللحم لا تقدر الأسود على التهامها .. كان هناك الكثير من الكاسافا المعجونة وفطائر التابيوكا Tabioka وكانت هناك خمور محلية ..

الطفل (وينى) ذو السنوات السبع بدأ يشعر بأنه ليس على ما يرام ..

وفى العاشرة مساء بدأ يقىء بلا توقف ..

بعد محاولات عدة لمنع القىء حمله أبوه فى سيارته العتيقة إلى المستشفى .. فى البدء فكر فى أن يذهب لأية مستشفى فى (ديربان) ، ثم قرر أنه أقرب لتلك الوحدة التى تدعى (سافارى) ... هكذا انطلق بسيارته إلى هناك ..

لكنه لم يكد يجتاز الممر الذى يقود إلى مدخل الوحدة حتى لفظ الصبى أنفاسه الأخيرة ..

لم يستطع أحد أن يحدد سبب الوفاة ، وقد أخذت عينات عدة من الصبى لأن الطابع المميز للوفاة يوحى بأنها تسمم .. هكذا يبدو التسمم ..

فى النهاية تقبل الرجل العزاء فى ابنه الصغير وانتهت القصة نهاية مأساوية ..

بعد أسبوعين مرضت امرأة ..

لقد أصيبت (دلومبا) بقىء وإسهال وانتفاخ شديد .. وبدأت حالتها تتدهور .. نقلوها إلى وحدة سافارى حيث عكف الأطباء على نقل المحاليل لها وإن لم يستطيعوا تحديد سبب علتها هذه ..

لكن الزولو لم يعطوا الأمر أهمية خاصة .. إن الأمراض منتشرة فى عالمهم منذ زمن ، ولا يمكن أن يعطوا أهمية خاصة لامرأة تقىء ..

فقط بعد أسبوع آخر ظهرت حالتان من طراز غريب ..

الحالة الأولى كانت لرجل تورمت غدته النكفية تمامًا .. إنها تلك الغدة التى تقع على زاوية فكك وتتورم فى داء (أبو كعب) .. لكن الرجل كان قد أصيب بذلك الداء من قبل .. دعك من أنه لم يكن محمومًا ..

من جديد ذهب الرجل إلى وحدة سافارى حيث تكررت الحيرة وعلامات الاستفهام ، وقيل إنهم سيأخذون عينة من تلك الغدة لتحليلها ..

كل هذا معقول ويوحى بوجود وباء ما .. هذه ليست مشكلة المفتش (زوما) .. من الجميل فى الحياة أن تقابل من حين

لآخر مشكلة ليست مشكلتك .. فلينهض هؤلاء القوم الجالسون فى المكاتب المكيفة فى المستشفيات ، ويحركوا مؤخراتهم البدينة ويقوموا ببعض ما يجب أن يقوموا به .. هذه ليست مشكلة أمنية يا سادة بل هى صحية ومن صميم عملكم ..

لكن الكارثة حدثت فى إحدى ليالى الجمعة ..

هناك وسط مجموعة أكواخ الزولو هذه بئر يأخذون منها الماء .. صحيح أن النهر قريب لكن البئر تؤدى الأغراض السهلة ، وما حدث هو أن أحد الزولو نهض بعد منتصف الليل قاصدًا منطقة البئر .. فقط ليجد مجموعة تقدر بأربعة أو خمسة من البيض ..

كانوا يقفون حول البئر مطلين على مائه ، ويقومون بشىء ما ..

لم يدر ما يفعل أو يقول إلا أنه ضرب الأرض بقدمه وأطلق صرخة عالية .. وفى الحال تفرق هؤلاء الرجال .. لم يعرف أكثرهم لكنه ميز ملامح واحد منهم .. إنه (فان راين) الصغير .. كتلة من القذارة والعدوانية مثل أبيه بالضبط ..

جرى الرجال ، ومن مكان ما برزت سيارة (بيك آب) فوثبوا فيها .. وسرعان ما كانت السيارة تدور حول البئر .. وأخرج

(فان راين) الشاب ذراعه من النافذة الجانبية وأتى بحركة بذيئة لم يفهمها الزولو على كل حال ، ثم أتبعها بصيحة مدوية بلغة الزولو التى يجيدها الهولنديون جميعًا هنا :

ـ « أيتها القردة السود ! سنعيدكم إلى الأشجار من حيث جئتم ! »

وأطلقت العربة فرملة صارخة مدوية ، ومن داخلها تصاعدت الضحكات والـ (بيبى ى) والـ (ياهوووه) بتلك الأصوات الرفيعة المتخنثة ، كأنهم هنود حمر .. من الواضح أنهم ثملون تمامًا ..

ويبدو أن السائق شد فرملة اليد لأنها دارت حول نفسها بتلك الطريقة الدوامية المجنونة ، ثم انطلقت نحو رجل الزولو ..

من الواضح أنهم سيدهمون الرجل ..



(٢)

فى اللحظة الأخيرة وثب الزولو جانبًا فمرت السيارة على بعد نصف متر منه .. وسمع صوت (الياهووووه) والـ (هيييـه) يبتعد فى الأفق .. وسرعان ما توارت أضواء السيارة ..

كان رجال القرية قد خرجوا من أكواخهم متسائلين عن سبب هذه الضوضاء ، والتفوا حوله يتأكدون من أنه بخير ..

ـ « ماذا جرى ؟ »

قال وهو يرتجف انفعالاً :

ـ « لقد رأيت البوير هنا .. إنهم أبناء (فان راين) ... كانوا هنا .. وكانوا يسممون البئر ! »

تبادل الرجال النظرات التى ظهرت فى العيون المتسعة وسط وجوههم السود .. إن هذا خطير جدًا .. للمرة الأولى يضبط البوير متلبسين بهذا .. هناك فارق كبير بين أن أكرهك وأن أحاول تسميمك ..

قال عجوز وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ « الأمر واضح .. لهذا عمت الأمراض بيننا .. لهذا مات الطفل .. »

كان الأمر مقلقًا بحق لكن أحدًا لم يجرؤ على اتخاذ الخطوة الأخيرة .. واقترح عاقل منهم أن يعرضوا شكوكهم على الشرطة ..

قال العجوز بعدما بصق :

ـ « يا للشيطان ! الشرطة لن تقف فى صف الزولو ضد البيض أبدًا .. كان هذا هو إيقاع الحياة فى شبابى أيام الأبارتايد ، وكانت هذه الأحداث يومية .. لم نكن نذهب للشرطة لأننا كنا رجالاً فى عروقهم دم رجال .. لم يكن الخل يجرى فى عروقنا مثلكم .. كنا ننتقم بنفسنا من هؤلاء البوير وكنا نقتحم مزارعهم ونقتل ماشيتهم ونحرق أطفالهم .. بعد هذا كانوا يفكرون مرتين قبل أن يفكروا فى إيذائنا .. »

قال العاقل الذى أصر على طلب الشرطة :

ـ « ليس قبل أن نتحقق .. »

وهكذا وجد (جاكوب زوما) نفسه يقف قرب هذا البركان .. يقف جوار سيارته التى تدور شارتها باعثة الأضواء على طريقة الأفلام الأمريكية ، وقد أحاط به رجال الزولو الغاضبون .. وهو يحاول إقناعهم بالتعقل .. ليس معنى أن يقف ابن (فان راين) قرب البئر أنه يقوم بتسميمه ..

ـ « عندما يحدث هذا بينما المرض الغامض يجتاح رجالنا فإننا نرتاب .. »

اتجه (زوما) إلى البئر وانحنى يتفحصه ، ثم جلب الدلو الذى يرفعون به الماء وأدار البكرة حتى بدأ هذا يهبط فى البئر .. عندما رفعه تفحص الماء بداخله ثم مد يده وأخرج ضفدعًا صغيرًا يحاول التملص ..

ـ « هل ترون ؟ كانوا ثملين وقد جاءوا ليقوموا بمهمة صبيانية هى إلقاء بعض الضفادع فى البئر .. هذه وقاحة لكنها ليست جريمة .. »

قال الرجال الغاضبون :

ـ «وجود الضفادع لا يعنى أنه لا يوجد شىء آخر .. »

قال آخر :

ـ «من يدرى ؟ لاحظ أن الضفادع لم تمت .. »

قال (زوما) لكبيرهم وهو يتجه إلى سيارته :

ـ « أريد منكم خدمة واحدة .. لا تعملوا عملاً أحمق .. سوف أقابل العجوز وأفهم منه كل شىء .. »

وعاد إلى السيارة وقال لسائقه أن ينطلق إلى مزرعة (فان راين) .. هنا سمع صوت جهاز اللاسلكى يبلغه برسالة مهمة :

ـ «لقد عثر الكمين على مجموعة من قطاع الطرق يترصدون بالسيارات العائدة من حديقة (كروجر) .. لقد فروا لكننا نطاردهم .. »

ابتسم فى قسوة وقال فى مكبر الصوت :

ـ « لا تتركوهم !.. أريد لهؤلاء أن يكونوا عبرة .. »

ثم أغلق الجهاز وقال للسائق :

ـ « هيا بنا إلى المزرعة .. عندنا ما هو أهم من بعض قطاع الطريق .. »

★ ★ ★

كانت كراهيته عمياء لـ (فان راين) العجوز .. كان يرى فيه التجسيد الحقيقى للغباء والتعصب والقسوة ، لكنه رجل شرطة يعمل فى خدمة الطرفين ، وعليه أن يكون محايدًا ..

انظر لـ (فان راين) العجوز وقد وقف على أعلى الدرج وفى يده البندقية ، بينما يقف أولاده من حوله مدججين بالسلاح والعضلات والثراء والغرور ..

يقول العجوز :

- « أنا لا أبالى بإقناع هذه القردة .. دع واحدًا منهم يضع قدمه فى مزرعتى وسوف أفجر رأسه .. قبل التسعينيات كانت الأمور فى موضعها وكان هناك سادة وعبيد .. فجأة يعلنون الاستقلال ويتحدثون عن (ناتال) مستقل ونعامل نحن السادة معاملة العبيد .. اليوم يجسر كلاب مثل هؤلاء على اتهامى بشىء .. »

قال ابنه الأكبر الذى شوهد جوار البئر :

- «نحن لا نبالى بتقديم تفسيرات .. قل لهم هذا وقل إننا سنحرمهم أية فرصة للعمل فى مزرعتنا .. »

داعب (زوما) قبعته ليصلح من وضعها ، وضغط على أعصابه وقال :

- «أرجو أن تفسحوا لى صدركم .. أنتم تواجهون الزولو .. قبائل الزولو التى يتحاشى الجميع خطرها .. لا أحد يستفز هؤلاء القوم .. ومن أبسط حقوقهم أن تقدموا تفسيرًا .. »

ثم أشار إلى الابن الأكبر وسأله :

- « هل ذهبت إلى البئر كى تلقى فيها ضفادع ؟ »

ابتسامة كريهة شاعت على وجه الفتى وقال فى غموض :

- «ربما .. »

- « هذه ليست إجابة .. »

كانوا أغبياء بحق .. لو كان يعرف التعبير القرآنى { أخذته العزة بالإثم } لوجده أنسب ما يكون لهذا الموقف .. لهذا انصرف وهو لا يتوقع خيرًا من الأيام القادمة .. هذه المواقف سريعة الاشتعال لا تحتاج إلى بنزين كثير ..

الأيام القادمة حملت الكثير من حالات القىء .. مع مرض جديد فريد هو تضخم الغدة الدرقية .. فجأة يجد المريض أن كيسًا يتدلى فى مقدمة عنقه .. وقد اكتشف أطباء وحدة سافارى أن عددًا كبيرًا أصيب بداء السكرى الذى لم يشك منه من قبل .. الأغرب أن عددًا كبيرًا من المرضى بدأ يمشى مترنحًا كأنه لا يشعر بقدميه أو لا يستطيع التحكم فيهما ..

ماذا يحدث هنا ؟

بالفعل كان البركان يغلى أكثر فأكثر ..

وكان هو يتوقع ما سيحدث لذا كثف الدوريات حول المزرعة وأمر سيارتى شرطة بالمرابطة عند بداية الطريق الرئيسى

المؤدى لها .. حدث ما توقعه ذات ليلة عندما نجح رجاله فى اعتراض مسيرة بالمشاعل تتجه نحو المزرعة .. الغضب المجنون فى العيون والسباب والعرق .. إن أيام الماضى الحلوة تعود بقوة ..

خرج من سيارته وواجه الرجال الغاضبين صائحًا :

- «سوف تهاجمون وتحرقون المزرعة وربما تذبحون من فيها .. وسوف يطلقون الرصاص عليكم بلا تمييز فيسقط عشرة منكم .. لكن هل هذا يحل مشاكلكم ؟ هل سيشفى أطفالكم ؟ »

- « إنه الانتقام ! »

- « الانتقام سيتم عن طريق القانون .. لكن لابد أولاً من معرفة دور هؤلاء فيما يحدث .. ربما لا دور لهم .. كونهم أوغادًا لا يعنى أنهم قتلة ! »

بمعجزة ما استطاع أن يفرق هذا الجمع .. لكنه راح يدعو الله أن تتضح الأمور سريعًا .. لن يستطيع وقف الشغب أكثر من هذا .. وراح جديًا يفكر فى الاستعانة بالجيش لو تحرك هؤلاء الغاضبون ثانية ..

فى هذه الظروف اتصل به أحد رجاله يخبره أنهم ضيقوا الخناق أكثر على قاطعى الطريق ..

- « أى قاطعى طريق ؟ »

- « هؤلاء الذين يهاجمون سيارات السياح عند حديقة كروجر.. هناك اثنان ماتوا منهم .. أحدهما مات بمرض غامض والآخر مات مؤخرًا بالإيدز .. إن الفارين الثلاثة سوف ..

صاح فى غيظ :

- « لا وقت عندى لهذا الهراء .. أد عملك ودعنى أؤدى عملى ! »

ثم قطع الاتصال ..

★ ★ ★

وفى وحدة (سافارى) قالت لنا الدكتورة (هانا) فى اشمئزاز :

- «يحاول هؤلاء الزولو أن يلصقوا التهمة بالبيض .. هذا كلام فارغ .. لا يوجد سم يحدث هذه الأعراض .. »

كنت أنا واقفًا جوار أحد المرضى الذين لم يعودوا قادرين على السير ، فقلت لها :

- «بالعكس يا سيدتى .. القائمة طويلة لعل أقربها تسمم الرصاص .. تسمم الزرنيخ المزمن يحدث أعراضًا مماثلة .. »

كنت أعرف أنها متعصبة .. ولو أننى عرضت عليها صورة تظهر الهولنديين يحملون زجاجة كتب عليها (سم) ويصبون ما فيها فى البئر وهم يرقصون طربًا ، فلسوف تزعم أن الصورة ملفقة ..

قالت فى ضيق وهى تنظر لى :

- « هل تتهم البوير بأنهم يسكبون الزرنيخ فى آبار الزولو ؟ »

هكذا تلخص الأمر كى تضعنى فى خانة الاتهام .. خانة الدفاع عن النفس .. لذا قلت فى برود :

- «لم أقل هذا يا سيدتى .. فقط أنت ذكرت معلومة معينة فى علم السموم لم ترق لى .. »

كنا نتكلم بينما طبيب الأمراض الباطنة الأسترالى (ويليام ستامب) يصغى للمحادثة فى اهتمام .. إنه رجل وسيم يبدو كممثلى السينما .. ولكنى لم أفهم حرفًا من كلامه منذ جئت إلى سافارى .. كنت أعرف أن لكنة (التطجين) الأسترالية صعبة لكن ليس إلى هذا الحد .. فلو أنه تكلم الصينية لفهمته بشكل أفضل ..

فجأة بدا عليه الاهتمام وقال :

- « حمضسيانيكأنتلى أقّ .. »

قلت له وأنا أهز أناملى :

- « هلا أوضحت كلامك ؟ أرجو ألا تدغم الحروف ببعضها .. »

عاد يقول فى صبر وتؤدة وهو يضغط على كلماته حرفًا حرفًا :

- « حمض الهيدروسيانيك ! أنت على حق ! هذه علامات التسمم بحمض الهيدروسيانيك ! »

تبادلت النظر مع الطبيبة الهولندية وقلت :

- « وهذا يعنى ؟ »

قال وعيناه تلمعان فى حماسة :

- « كنت قد أجريت دراسة على هذا الموضوع فى (بابو غينيا الجديدة Papua New Guinea) المجاورة لوطنى أستراليا .. أنت تعرف أن كل شعوب المناطق الحارة تأكل جذور (الكاسافا) أو المانيوك Manioc.. هناك نوعان من الكاسافا .. الكاسافا الحلوة التى يشبه مذاقها البطاطا .. والكاسافا المرة التى يطحنونها لاستخراج النشا والدقيق ومن هذا الدقيق تصنع فطائر التابيوكا .. لإعداد الكاسافا خطوات معينة فإن لم تتبع بدقة ، يؤدى امتزاج أنزيماتها بالماء إلى تصاعد حمض الهيدروسيانيك .. وصورته الطبية كما وصفها الأطباء وكما وصفتها فى ثلاث أوراق علمية هى ...... »

ثم أخذ شهيقًا عميقًا وأردف فى حماس :

ـ « الغثيان .. القىء .. الانتفاخ .. تضخم الغدة الدرقية .. تضخم الغدة النكفية .. البول السكرى .. صعوبات فى المشى وخرق عام !! إنها أعراض خطيرة جدًا ومن السهل أن تسبب الوفاة .. »

تبادلت النظرات مع الطبيبة الهولندية وشعرنا بأننا نشتعل حماسة ..

هذا هو التفسير ولا تفسير سواه .. كأن هؤلاء القوم قرءوا الموضوع بعناية قبل أن يمرضوا ..

قالت وهى تنهض مسرعة :

ـ « سوف أبلغ ذلك المفتش .. ماذا كان اسمه ؟ »

ـ « (جاكوب زوما) .. »

ـ « سوف أبلغه حالاً .. إنه يقف فوق فوهة بركان ثائر وقد صار الحل واضحًا .. »

★ ★ ★

انطلق أول مشعل فى الهواء راسمًا قوسًا ثم سقط ..

سقط بالضبط فوق إسطبل الخيول .. وبدأت النار تتعالى زاحفة .. ملوحة بمخالبها فى الهواء وهى ترقص رقصتها المخبولة .. وتعالى صهيل الخيول ..

ومن مكان ما جرى عامل أبيض ليخرج هذه الحيوانات التعسة من محبسها .. فانطلقت تركض فى أرجاء المزرعة هائجة يتصاعد البخار من مناخرها ..

بينما تدفق الزولو من بين الأشجار ملوحين بالمشاعل .. لم يعودوا كمحاربى الماضى العراة المزينين بالحلى والريش ، بل هم يلبسون القمصان والسراويلات لكنهم يحملون ذات الروح ..

كانوا حوالى خمسين منهم .. وقد راحوا يركضون هنا وهناك يشعلون النار فى كل شىء ..

برز الفتى (فان راين) من مكان ما .. وثبت بندقيته على كتفه وراح يطلق الرصاص بلا تردد فسقط خمسة من هؤلاء ...

أحكم التصويب فى اتجاه آخر .. لكن عملاقًا من الزولو انقض عليه من الخلف ليثبت تحت عنقه أداة للحصاد هى أقرب إلى سيف كبير .. كان النصل لأعلى نحو العنق ...

وخرج العجوز حاملا بندقيته وراح بيد راجفة يحاول أن يطلق الرصاص لكنه عجز عن ذلك تمامًا .. لم يطلق رصاصة واحدة منذ عشرين عامًا ..

فى كل مكان من مزرعته يرى الزولو يركضون صارخين ، كأنهم شياطين انشقت الأرض لتخرج منها ..

قال بصوت واهن :

- « إنها الثورة !... اطلبوا البريطانيين ! »

ما زال يعيش فى الماضى أيام الأبارتايد .. ما زال يعتقد أن شاكا زولو يهاجمهم .. وأن لورد (تشيلمز فورد) ما زال حيًا يرزق ..

بينما من مكان ما تعالت أغنيات قديمة منسية .. أغنيات لم يسمعها منذ عشرين سنة ..

- « عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىى ! »

وصل رجال الشرطة متأخرين هذه المرة لأنهم طلبوا الكثير من التعزيزات .. وفى النهاية كانت سياراتهم تقف وسط المزرعة وبنادقهم مصوبة فى كل اتجاه ..

لقد تأخروا كثيرًا لأن المزارع الهولندى فقد ثلث مزرعته وفقد اثنين من أبنائه ..

الحرائق ما زالت مستمرة والدخان يتصاعد فى السماء التى غزاها الظلام .. وثمة رائحة فى الجو لا تريح الأنف .. ربما رائحة الدم .. رائحة الموت ..

وبصوت عال صاح المفتش (جاكوب زوما) :

- « البوير لا علاقة لهم بما يحدث لكم .. قلت لكم ألف مرة إن الكراهية لا تعنى القتل فأبيتم أن تصدقونى .. »

نظر له الرجال فى عدم فهم .. كانوا قد ذاقوا الدم وصاروا راغبين فى المزيد .. لم يعد بوسع أى منطق أن يعيدهم للصواب ..

قال المفتش :

- « الفتى (فان راين) كان ثملاً عندما زار بئركم .. ولم يرد سوى أن يلقى فيها بعض الضفادع على سبيل التحدى .. إنها وقاحة لكنها تعاقب بالضرب على أصلى فخذيه لا بالقتل ! »

ثم نظر فى الرجال من حوله بينما النار تتراقص على كل شىء جاعلة الأمر يبدو كالكابوس ، وقال :

- « المشكلة هى فى الكاسافا التى تأكلونها .. الأطباء عرفوا الجواب .. ما الذى جد على عاداتكم الغذائية فصارت التابيوكا سامة ! »

تبادل الرجال النظرات ثم قال أحدهم :

ـ «منذ فترة بدأنا نحيط حقول الكاسافا الحلوة بنطاق من الكاسافا المرة .. إنها طريقة لطرد اللصوص .. هذا هو الشىء الوحيد المستجد .. »

قال المفتش وقد بدأ يفهم :

ـ «والنساء يتعاملن مع الكاسافا الحلوة بلا حذر .. ما إن تتعرض هذه الكاسافا للماء حتى يتصاعد غاز سام قاتل .. هذا هو الغاز الذى أودى بأطفالكم وجعل رجالكم عاجزين عن المشى .. »

ثم نزع قبعته وجفف العرق .. فساد الصمت ..

إن الأيام القادمة عصيبة عليه وعلى هؤلاء ..

بركان الغضب الذى يثور فى كل مرة فيحاول إطفاءه ، ولولا وحدة سافارى لوقعت كارثة كاملة .. ما وقع هو ربع كارثة .. نصف كارثة .. فقط لو أن هؤلاء البوير كانوا أقل صلفًا .. لو قبلوا أن يتراجعوا قليلاً ....

إن الزولو شعب نبيل عظيم الكبرياء .. والتعامل معه يحتاج إلى أقصى درجة من الحكمة والكياسة .. هذه أشياء لا يفهمها

المستعمر أبدًا .. فإن فهمها ....!! استطاع ذلك البريطانيون لا الهولنديون .. وقد دفع الهولنديون ثمن جهلهم غاليًا مرات لاحصر لها .. وفى النهاية صاروا حكومة عنصرية معزولة عن سواد الشعب .. فقط ليتم الإطاحة بهم ويصيروا مجرد أقلية مذعورة فى بحر أسود ..

إن مصيرًا محتومًا مماثلاً ينتظر الإسرائيليين ، ويومها سيعرفون المعنى الحقيقى للرعب وسط أغلبية عربية تمقتهم كالجحيم ..

لم يكن المفتش يعرف قصيدة الشاعر الفلسطينى (محمود درويش) ، ولو عرفها لوجد أنها تلخص الموقف بدقة :

ـ «أنا عربى ..

أنا لا أكره الناس ولا أسطو على أحد ..

ولكنى إذا ما جعت آكل لحم مغتصبى ..

إذن فحذار من جوعى ومن غضبى !

ومن غضبى !!»

★ ★ ★

حكاية عن غاندى الأفريقى

(١)

رآهم الرقيب (ماتجاليسو) وهم يركضون بين الأعشاب العالية التى ترتفع حتى الخصر ..

أخرج مكبر الصوت اليدوى من السيارة وصاح فيهم :

- « توقفوا !! »

لكنهم واصلوا الركض مبتعدين .. كانوا ثلاثة .. ولم يكن فى مظهرهم شىء يوحى بالثقة أو الاطمئنان .. هؤلاء لصوص إلى أن يثبت العكس ..

رفع بندقيته وأطلق الرصاص مرتين فى اتجاههم ، فدوى الصوت والصدى عبر السهل .. ورأى أحدهم يترنح ثم يستجمع قواه ويركض وهو يمسك بكتفه .. وفى اللحظة التالية تواروا بين الأعشاب العالية ..

اتجه إلى السيارة وأخرج الصورة التى التقطها ذلك السائح لتلك المجموعة .. لا يستطيع أن يقطع بأنهم هم .. لم يرهم مواجهة كما فى الصورة ، لكنه كان يشعر بحدسه البوليسى أن هؤلاء قطاع طرق ..

اتجه إلى جهاز اللاسلكى فى السيارة وطلب القيادة :

- « أنا قرب (مبومالانجا) ... أعتقد أننى رأيتهم لكن البحث عنهم مستحيل وسط النباتات الكثيفة .. أعتقد أنهم يتجهون صوب المحمية .. »

جاء الصوت المعدنى البارد يقول :

- « سنرسل لك سيارتين .. »

هكذا أغلق جهاز اللاسلكى وأدار محرك السيارة ..

★ ★ ★

فى ذات اللحظات يمشى العجوز الأشيب الوقور متوكئًا على ذراع سكرتيرته الهولندية ، وعيناه تضحكان .. يجر نحو تسعين عامًا من التجارب القاسية .. لكنه ما زال يملك الكثير ليمنحه ..

لقد تخلى عن كل مناصبه السياسية منذ عام ١٩٩٩ لكنه لم يستطع الإفلات من المنصب الأبدى فى قلب شعبه ، وفى قلب العالم كله .. عمدة لندن مصمم على بناء تمثال له فى ميدان (ترافلجار) ... الهند وكندا اعتبرتاه مواطنًا فخريًا .. لقد نال أكثر من مائة جائزة فى أعوام محدودة ..

إن اسمه (مانديلا) ... (نلسون مانديلا) ..

صحفية شابة سمراء التقت به منذ فترة .. قالت إن اسمها (جوجو دلامينى) وأنها تعمل فى التلفزيون لكنها تجمع مادة لفيلم وثائقى عنه.. انحنى ولثمها على خدها .. كان هذا العجوز ما زال يتذوق الجمال كدأبه ، وكان فاتنًا للنساء كما كان فى شبابه بالضبط .. لذا وضع يده على كتفها وسألها :

ـ « هل أنت واقعة فى الحب ؟ »

احمر وجهها وقالت فى خجل :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأننى كنت سأعرض عليك الشىء ذاته .. لكن من الواضح أن هناك من فاز بقلبك .. ما اسم هذا المحظوظ ؟ »

ـ « (مبوجو) ... إنه صحفى وشاعر من الزولو .. »

هز رأسه بطريقة عارفة وقال :

ـ « طبعًا من الزولو .. لا يمكن أن تخطئ الأذن رنين الاسم .. حافظى على حبه ولا تعذبيه كثيرًا .. أروع شىء فى العالم أن تحظى بحب شاب شجاع .. »

ثم أخبرها أنه الآن ذاهب إلى مؤتمر فى (تايلاند) ليناقش داء الإيدز الذى يجتاح جنوب إفريقيا .. يجمع التبرعات من أجل المنظمة التى أنشأها والتى تدعى ٤٦٦٦٤ .. وسبب هذا الاسم الغريب هو أنه كان يحمل الرقم ذاته فى السجن .. أى أن هذا ظل اسمه سبعة وعشرين عامًا !

وعندما ابتعد راحت ترمقه فى انبهار وذهول ..

يلبس ذلك القميص البسيط المزخرف بألوان إفريقية زاهية من فن (الباتيك) ... فى جنوب إفريقيا صارت هذه القمصان موضة ، ويطلقون عليها اسم (قمصان ماديبا) ... (ماديبا Madiba) لقب فخرى أطلقه الناس عليه هناك ..

ان اسمه (مانديلا) ... (نلسون مانديلا) ..

الرجل الذى ذاق الكثير من سياسة الأبارتايد .. أضاع شبابه كله فى السجن ، لكنه انتصر فى النهاية ..

كان هذا هو العام ١٩١٨ عندما ولد فى قرية قرب (أومتاتا) .. إنه من قبائل (الخوسا) كما قلت لك من قبل .. وفى سن السابعة ذهب إلى المدرسة حيث أطلق عليه أحد القساوسة هناك اسم (نلسون) .. بهذا كان أول طفل فى أسرته يذهب إلى المدرسة ..

فى سن السادسة عشرة خاض احتفالات الرجولة كعادة قبائل الخوسا .. ودخل مدرسة داخلية ..

هذه هي السنوات التى شهدت اهتمامه برياضة الملاكمة ، واهتمامه الأول بالسياسة .. أول إضراب فى حياته كان فى كلية (فورت هير) وكانت نتيجته طرده ، من ثم انطلق إلى (جوهانسبرج) ليدرس المحاماة .. وتخرج محاميًا هو من ألد أعداء الأبارتايد .. محاميًا يدافع عن السود بلا مقابل ..

عام ١٩٤٨ فاز بالحكم الحزب القومى الذى يسيطر عليه الأفريكانز .. أى أن سياسة الأبارتايد صارت هى التى تحكم البلاد فعليًا .. لذا راح يحاربه بشراسة ..

عام ١٩٥٦ قبض عليه واتهم بالخيانة .. تمت تبرئته بعد محاكمة استمرت خمسة أعوام .. صمم بعدها على أن الكفاح المسلح هو الحل الوحيد ..

هكذا صار قائد الجناح العسكرى للمجلس القومى الأفريقى ANC .. الجناح العسكرى الذى يطلقون عليه (أومكنتو وى سيزوى) أى (رمح الأمة) والذى يعتبر جيشًا أسود تحت الأرض .. ثم قبض عليه فى أغسطس ١٩٦٢ بعد مطاردة عنيفة استمرت ١٧ شهرًا وسجن .. كالعادة يقال إن المخابرات المركزية الأمريكية هى التى ساعدت الحكومة فى العثور عليه ..

فى المحاكمة وجهت له تهمة أنه يحارب الحكومة (وهى تهمة تفاخر بها) وأنه دعا الدول الغربية للتدخل فى جنوب إفريقيا (وهى تهمة مألوفة على مسامعنا لكنه أنكرها بشدة على كل حال) ..

★ ★ ★

- «لماذا أواجه فى قاعة المحكمة هذه قاضيًا أبيض ومدعيًا أبيض بينما يحرسنى حراس بيض ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم بأمانة أن هذا المناخ يسمح باستقرار ميزان العدالة ؟ لماذا لم يسبق لأفريقى فى تاريخ هذا البلد أن نال شرف أن يحاكمه أفراد جنسه ؟ أولئك الذين من لحمه ودمه ؟ أنا رجل أسود فى محكمة رجال بيض .. وهذا لا ينبغى أن يكون ..»

★ ★ ★

كان حبل المشنقة قريبًا جدًا منه ومن رفاقه ، لكن الحكم صدر بالسجن المؤبد عام ١٩٦٤ .. هكذا وجد نفسه مسجونًا لمدة ٢٧ عامًا فى جزيرة (روبن Robben) ..

هكذا دخل (مانديلا) السجن ليتحول إلى رمز بصرى قوى مثله مثل (جيفارا) و(أنجيلا ديفيز) وسواهم .. وصارت عبارة (حرروا مانديلا) تتردد على كل لسان وفى كل مظاهرة .. صار (مانديلا) أيقونة أفريقية تذكر الناس بالعبقرى (غاندى) ، ومن العجيب أن (غاندى) نشأ وتعلم القانون هنا .. هناك

عبقرى آخر من أصل هندى نشأ هنا هو الداعية الأشهر (أحمد ديدات) ، الذى ولد فى الناتال وجاب العالم كله ، وعولج فى الخارج من جلطة ألمت به ، ثم عاد ليلقى ربه ويدفن فى الناتال .. يبدو أن هناك لغزًا ما فى هذا البلد ..

كل العالم اعتبر (مانديلا) المطالب بحقوقه فى وطنه رمزًا للنضال .. فقط حكومة (ريجان) اعتبرته إرهابيًا وكذا فعلت رئيس وزراء بريطانيا (مارجريت تاتشر) .. وهى عادة لن تتخلى عنها الولايات المتحدة ولا بريطانيا أبدًا .. كل من يقف ضد مصالحهما إرهابى ..

يبدو أن الضغط يجدى فى النهاية .. فبعد كل هذه الأعوام واستجابة للضغوط الداخلية والخارجية الكاسحة تم إطلاق سراح مانديلا عام ١٩٩٠ ..

والآن تأمل غرابة الأمور .. هذا السجين المنسى يتقدم ليصافح ملك السويد ، وينال جائزة نوبل عام ١٩٩٣ .. أى خلال ثلاثة أعوام فقط من إطلاق سراحه ..

هذا السجين المنسى يرشح نفسه فى أول انتخابات ديمقراطية تشهدها البلاد ، فيصير أول رئيس أسود لجنوب إفريقيا على الإطلاق .. لقد استطاع السود أخيرًا أن يملكوا الكلمة الأولى فى بلادهم ..



- « لقد حاربت سيطرة البيض .. وكذلك حاربت سيطرة السود .. لقد همت حبًا بفكرة المجتمع الديمقراطى الحر حيث يعيش الناس سواسية منسجمين .. إنه مثل أعلى أحلم بأن أحققه ، لكن لو اقتضت الحاجة فهو مثل أعلى أقبل الموت من أجله .. »

★ ★ ★

صار (مانديلا) رئيس البلاد من عام ١٩٩٤ حتى عام ١٩٩٩ عندما أعلن أنه يريد اعتزال السياسة لأسباب صحية .. لقد اكتفى بهذه الفترة وفعل فيها ما أراد ان يفعله ، واطمأن إلى أن عجلة الديمقراطية دارت وستدور من بعده ..

هكذا لم يعد ذا منصب رسمى ، لكن لم يستطع التملص من مناصبه الشرفية .. كما عرفنا صار من أهم العاملين فى مجال الإيدز .. وفى قضية (لوكيربى) الشهيرة كان هو الوسيط بين ليبيا والغرب .. وهو الذى جعل الغرب يقبل ما تطلبه ليبيا بصدد هيئة محاكمة محايدة على أرض محايدة ..

عام ٢٠٠٣ وقف أمام الصحافة العالمية وصاح فى حدة غير دبلوماسية بالمرة ان (بوش) عنصرى ، وأنه يغزو العراق برغم عدم موافقة الأمم المتحدة لسبب واحد هو أن أمين عام الأمم المتحدة رجل أسود .. لو كان الأمين أبيض لما تجاسر (بوش) على عمل ذلك ! وهى عبارة بالغة

القسوة تتهم (بوش) بالعنصرية وتتهم (كوفى عنان) بأنه لا أحد يحترمه ، وقد حاول الكثيرون أن يعتذروا عنها لكنه كان مصرًا .. وكما هى العادة ابتلع (بوش) الإهانة واحمرت أذناه الكبيرتان قليلاً ، ثم واصل ما يقوم به ..

حتى على صعيد الفن ، ظهر (مانديلا) فى دور شرفى Cameo فى فيلم (مالكولم أكس) الذى يحكى عن مناضل أمريكى مسلم أسود ..

تزوج مانديلا ثلاث مرات .. الزيجة الأولى فشلت بسبب انهماكه فى الكفاح فلم تتحمل الزوجة كل هذا الإهمال .. الزيجة الثانية فشلت لأنه دخل السجن بينما الزوجة كانت ابن وزير مهم ، ولم يكن وضع أسرتها يسمح بأن يكون زوجها (لوماتجى) .. الزيجة الثالثة ـ وهى الحالية ـ كانت من أرملة زعيم أفريقى ، وقد عقدت وهو فى سن الثمانين !

ما زال جنوب إفريقيا بلدًا يعانى الكثير .. ارتفاع معدلات الفقر والجريمة وداء الإيدز اللعين تجعل هذا البلد أبعد ما يكون عن الجنة التى يحلم بها هذا الرجل ..

إنه بلد جميل غنى مستقر سياسيًا لكنه غير مستقر أمنيًا أو اقتصاديًا ..

فقط فى ذلك اليوم الذى يعود فيه الاستقرار للبلاد يمكن لـ (مانديلا) أن يغمض عينيه ويستريح ..

★ ★ ★

حكاية ثلاثة ضباع

(١)

أخيرًا استطاع (سيمياكوف) أن يعود إلى عمله ، وقد خرجت أتأبط ذراعه مهللاً قائلاً عبارات على غرار:

ـ « لا يستطيع الموت أن يقهر (ريتشارد قلب الأسد) .. »

تلك الدعابات المصرية جدًا التى يستحيل أن يفهمها ..
وكانت (سيمونيتا) تنتظره فى الممر شبه دامعة ، فطوق كتفها بذراعه السليمة ومشى وسط الأطباء الذين راحوا يهنئونه .. لاحظ أنه أقدم منى بكثير فى الوحدة .. ما زلت أنا أقرب إلى ضيف عابر سوف يرحل سريعًا .. ليس لدى رصيد من الذكريات وعلى الأرجح ليس لى مستقبل ..

يسعدنى هذا لأننى أعتبر نفسى مصريًا أولاً .. ثم كاميرونيًا ثانيًا .. لأسباب عديدة لم أحب هذا البلد كثيرًا ..

كان (سيمياكوف) طبيب عظام .. معنى هذا أنه سيحتاج إلى فترة لابأس بها للتكيف واستعادة لياقته ، لأن طب العظام من أعنف أنواع الجراحة وممارسته تحتاج إلى لياقة عالية ..

كان ساهمًا وقد فهمت إلى حد ما ما يفكر فيه .. عندما جلسنا فى الكافتيريا أخيرًا سألته عما به ، فقال بإنجليزيته الرديئة ما توقعته :

- « إنه ذلك الشعور بعدم الأمان .. لقد نجوت هذه المرة فماذا عن المرة القادمة ؟ إن الشعور بالأمان ثوب أبيض يتسخ بسهولة .. ولا يعود أبدًا كما كان .. »

قلت له كاذبًا :

- « إن التجارب القاسية نادرة .. نحن لا نمر بها يوميًا وإلا لملأت الجثث الشوارع .. من الممكن ألا يواجه المرء ذات الموقف إلا مرة واحدة فى حياته ، وربما لا يواجهه أبدًا .. أنت مررت باختبارك الخاص ونجحت .. أنت إنسان محظوظ إذن .. »

نظر إلى (سيمونيتا) التى كانت تتبادل حوارًا مازحًا مع صديقة لها وقال :

- « هذا عالم قاس .. كيف يجد المرء الجرأة ليتزوج وينجب أطفالاً فى عالم كهذا ؟ »

ابتسمت ولم أعلق .. كنت أفكر فى (برنادت) الوحيدة هناك فى الكاميرون ..

فى هذه اللحظة عادت (سيمونيتا) .. كانت نضرة كالزهرة وهى ترى حبيبها منتعشًا وقد استعاد لياقته .. جلست تأكل فى نهم ثم سألتنى :

- « بالمناسبة .. لم أر (جوجو) منذ زمن .. تلك الصحفية المصابة بالـ ...... »

- « ماتت ! »

تبدل وجهها فى لحظة كأنك مددت يدك وأطفأت المصباح ، ونظرت لى غير مصدقة ، فقلت فى هدوء :

- « لم يقتلها الإيدز .. قتلها أهل قريتها لأنها أعلنت أنها مصابة بالإيدز .. »

- « ومتى حدث هذا ؟ »

- « كان (فاسيلى) فى عنابر الجراحة وكنت معه .. لم يقابلها سواى وقد ماتت وأنا جوار فراشها .. أعتقد أنها كانت راضية .. »

نظر لى (سيمياكوف) نظرة ذات معنى وقال :

- « قلت لك إنه عالم قاس مخيف يا بنى .. ألا ترى هذا معى ؟ »

★ ★ ★

فى الوقت ذاته لم أكن أعرف أن ثلاث سيارات شرطة راحت تحوم حول المنطقة التى شوهد فيها الأوغاد الثلاثة آخر مرة ..

أمسك الرقيب (مانجاليسو) بجهاز اللاسلكى وقال :

ـ « قد فقدنا أثرهم تمامًا .. إنه العصر ولن يلبث الليل أن يأتى .. هناك احتمال لا بأس به أن يكونوا تسللوا إلى الحديقة المفتوحة .. »

جاء الصوت المعدنى من الجهاز يقول :

ـ « استمروا فى عمل دوريات .. إذا جاء الليل لن تجدوهم .. »

وضع الرقيب السماعة وتنهد .. لا مشكلة فى فقد ثلاثة لصوص .. هناك الكثير منهم على كل حال .. عليهم أن يواصلوا تمشيط الطرق الجانبية ..

لم يكن (ثولانى) حارس الغابات يعرف بشىء من هذا ، حيث جلس فى سيارته اللاندروفر يراقب السهل الممتد أمامه .. كان الطقس أميل للبرد فرفع زجاج سيارته قليلاً ومد يده إلى ترموس الشاى ليصب لنفسه بعضه ..

بصق قطعة اللادن التى يمضغها والتى يحرص عليها لأنها تعطيه طابعًا أمريكيًا يروق له ، برغم أنه من الزولو ..

كان قلقًا بسبب هذا السلوك غير المعتاد لقطيع الضباع .. إن صورة جثة اللبوءة الممزقة التى وجدها قرب النبع لا تفارق ذهنه .. وقد خطر له أن هناك عدوى سعار قد انتشرت بين هذه الحيوانات الهيابة الخجول بطبعها .. لم يسمع قط عن ضباع تهاجم لبوءة .. هذا عجيب ..

لم يدر أن هناك من يزحف نحو السيارة ..

لم يشعر بأن يدًا تمتد إلى مقبض الباب ..

وفى اللحظة التالية وجد أن هناك من يجذبه من كتفه خارج السيارة فسقط على الأرض وسط العشب .. نهض محتجًا لكن ركلة هوت على وجهه فشعر بالدم يغمر كل شىء .. منذ متى كان العالم أحمر ؟ ..

عندما استطاع أن ينهض أخيرًا رأى أنه يواجه ثلاثة رجال سود تبدو عليهم الشراسة .. السمة العامة المميزة لهم هى أنهم يلبسون خليطًا من ثياب الجيش والثياب الداخلية .. ويبدو أنهم من (الخوسا) ..

قال لهم وهو يحاول الجلوس :

ـ « اسمع ! لابد من أن يكون لديكم تفسير لكل هذا الـ .. »

ثم صمت ..

لقد وجد أنه يحملق فى فوهة مسدس مصوبة إلى رأسه .. وكان حامل المسدس يثبت عينيه عليه .. عينين فى وجه كأنه قُدَّ من صخر ..

رفع يده محتجًا وصاح :

ـ « أنت لن .. »

لكنه رأى الدخان يخرج من الفوهة .. لم يسمع الطلقة ولن يسمعها أبدًا لأنه مات قبل أن ترتطم الموجات الصوتية بأذنيه ..

وقف ثلاثة الرجال ينظرون إلى الجثة الراقدة على العشب ، وقال أحدهم :

ـ « أنت أحمق .. ما كان يجب أن تقتله .. لقد صار موقفنا معقدًا .. »

قال الذى أطلق الرصاص وهو يعيد السلاح لجيبه :

ـ « إنه معقد بما يكفى .. لن نتركه حيًا كى يصفنا لرجال الشرطة ، ويخبرهم باتجاهنا .. إذا أردت أن تبقى معه فلتفعل .. »

بالطبع لا نية لذلك ..

هكذا وثب الرجال إلى السيارة وأداروا محركها ..

★ ★ ★

(٢)

اندفعت السيارة وسط المحمية فى منطقة رمال (سابى) .. وقد أشعرتهم جودة محركها وانسيابتها التامة بثقة بالغة فى إمكانية الهرب .. هكذا راحوا يقطعون مساحات شاسعة ، وكان الليل قد بدأ يتوغل ..

من بعيد تقف سيارتا (فان) بمن فيهما من سياح يلتقطون الصور لمجموعة من الظباء ترتوى من ماء البحيرة .. يرون السيارة المندفعة فيتساءلون عن هذا المجنون ..

بحث اللصوص الثلاثة فى السيارة اللاندروفر فوجدوا طعامًا وزجاجة عصير ، هكذا انقضوا على الطعام يلتهمونه وعلى العصير يشربونه ..

وقال أحدهم :

ـ « يجب أن نهاجم إحدى سيارات السياح هذه .. »

قال صاحبه :

ـ « ليس داخل المحمية .. هناك دوريات .. »

ـ « ألم تفهم بعد أننا رأينا أسوأ شىء ممكن ؟ لم تعد هناك أوهام .. نحن ضائعون .. علينا أن نتصرف بوحشية تامة كى ننجو .. »

قال الآخر فى عناد :

- « ليس داخل المحمية .. »

الظلام دامس الآن .. القمر يتألق فوق الغابات أزرق باردًا معدنيًا .. تتعالى قمم الأشجار فى ضوء القمر كأنها مخالب عمالقة تستغيث .. أو تحاول اقتناص هذا الكوكب المراوغ ..

كشافات السيارة تتوهج وهى تشق الطريق بصعوبة .. من الواضح أنهم ضلوا الطريق تمامًا ..

فجأة فوجئوا بالكشافات مصوبة عليهم .. للحظة فقدوا الرؤية .. ثم أدركوا أن هناك حوالى خمس سيارات تقف فى عرض الطريق .. سيارات شرطة .. تصوب نحوهم المصابيح مع الكشافات فى أيدى الحراس .. وسمعوا صوتًا يصيح بلغة الزولو :

- « توقفوا ! »

لكن من الأحمق الذى يتوقف ؟

سرعان ما دارت السيارة بحركة جنونية مائة وثمانين درجة ، وانطلقت تنهب الطريق مبتعدة .. وسمعوا صوت أبواب السيارات تنغلق والمحركات تهدر .. لكنهم لم يطلقوا الرصاص عليهم لحسن الحظ ..

هكذا انطلقت سيارتهم فى سباق جنونى وسط رمال (سابى) هذه ..

نظر أحدهم إلى الخلف وهتف فى السائق :

- « بالله عليك .. افقدهم !.. افقدهم ! »

كانوا يفكرون الآن فى نهاية هذه الحياة القاسية .. فقدوا (بيكيتشا) بذلك المرض الغريب الذى جعل قدمه وبطنه تتورمان ، ثم فقدوا (ميريتى) فى إحدى المستشفيات القذرة بعد ما استبد به الإيدز .. (ميريتى) كان يفخر بأن الإيدز لن يقهره أبدًا وكان يفخر بأنه نقله لأربعين امرأة .. فجأة قضى عليه الإسهال ويالها من ميتة مهينة بحق .. اليوم هم ثلاثة فقط لكنهم فى لحظات النهاية ..

السيارة تثب فوق منحدر ثم تستقر على عجلاتها الأربع ، لكن الصدمة جعلت رءوسهم تصطدم بالسقف .. وهتف أحدهم :

- « تمهل .. نحن لا نريد أن نسجن لكننا كذلك لا نريد أن نموت .. »

ويواصل السائق الاندفاع بالسيارة وهو يتنفس بعمق من منخريه كأنه ثور برى .. يبدو أنه دخل طور عدم التعقل إياه وصار الكلام معه عسيرًا ..

الظلام .. كشافات السيارة .. ضوء القمر ..

من بعيد ترى العنق الطويل لزرافة تمشى أو ترى قطيعًا من الأفيال يهيل التراب على جسده ..

النهر ...

مجموعة من الأشجار ترقد جوارها أسرة من الأسود الكسول تتثاءب ..

أين نحن ؟ لا يعرفون .. هذا الظلام اللعين يزيد الأمور سوءًا ..

ماذا تفعل أيها الأحمق ؟ هذا ليس منحنى ! إنها حفرة عميقة .. لابد أنك جننت .. توقف ! توقف !

لكن الإنذار جاء متأخرًا وحلقت السيارة فى الهواء لتعبر الحفرة ، ثم هوت على الجانب الآخر لتنقلب عدة مرات على جانبها ، وفى النهاية ارتطمت بشجرة عملاقة ..

★ ★ ★

إنه الألم يعصف بجسدك ..

معنى هذا أنك لم تمت .. الموتى لا يتألمون ..

الثلاثة راقدون على الأرض ممزقى الأوصال .. إنهم عاجزون عن الحركة .. فقط يفتحون عيونهم ليروا عجلة السيارة فى وضع أفقى تدور بلا انقطاع ..

لابد أن هناك الكثير من السيقان المهشمة .. على الأقل جمجمة واحدة تحطمت وعامود فقرى ..

إنه لمأزق مخيف ، فهم غير قادرين على طلب النجدة .. الأمل الوحيد هو أن يجدهم المطاردون .. فجأة صار المطاردون يعنون الحياة ويا لها من سخرية ..

من حين لآخر ينظرون إلى السماء وصفحة النجوم الصافية ..

يتذكر كل منهم قريته وحياته الصاخبة .. كيف بدأ طريق الجريمة ثم وجده هو الطريق الأسهل والعامر بالإثارة والمشاعر السادية ..

فقط انقطعت سلسلة الخواطر عندما ظهر الضبع الأول ..

ضخمًا شريرًا تضىء عيناه فى الظلام ، وينتفش الشعر حول عنقه .. كأنه مبعوث الشيطان .. وإن رائحة أنفاسه لتعبق المكان قبل قدومه ..

ثم دوت الضحكة المدوية الساخرة التى يعرفها الجميع .. لهذا يطلقون عليها الضباع الضاحكة .. فجأة تدوى القهقهة ممزوجة بالصدى ، ومن كل صوب يظهر المزيد من هذه الوحوش ..

إنها قادمة من أجل القتل السهل ..

فريسة عاجزة عن الحركة .. كل ما تستطيع عمله هو أن تصرخ ..

تصرخ ..

تصرخ ..

★ ★ ★

كنت ساهرًا فى وحدة (سافارى) عندما وصلت الجثث الثلاث الممزقة فى الرابعة صباحًا ..

قالوا لى إنهم فلاحون مزقتهم الضباع فى المحمية .. وجدتهم سيارة سياح وحملتهم لنا .. لا أحد يعرف لماذا دخلوا هناك ..

جاء طبيب الجراحة وتفحص الثلاثة .. لم أر قط فى حياتى إصابات بهذه الشناعة ولا أطرافًا تم قضمها بهذا الشكل الجدير بالمراجع الطبية ..

الأسوأ أنهم كانوا أحياء .. كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، وقد دخلوا فى دائرة (اللهاث) الأوتوماتيكية التى تعنى أن الأمر خرج من يدنا ، وأن دوائر المخ تحاول أداء عملها الأخير الذى تمارسه منذ الخليقة .. العمل الذى تمارسه من دون وجود عقل واع يسيطر عليها ..

العيون متسعة والفم مفتوح وصوت اللهاث الحيوانى يتصاعد من الوجوه المشوهة .. طلبنا بعض وحدات البلازما وأن يعدوا جهاز الأشعة .. لا وقت للبحث عن دم الآن ..

قال الجراح وهو يحاول أن يركب قناة وريدية لأحدهم :

ـ « لا جدوى .. إن هى إلا ثوان وينتهى كل شىء .. »

جاء (سيمياكوف) ووقف جوارى وراح يراقب الموقف .. ثم قال فى أسى :

ـ «قلت لك إن الحياة غير عادلة .. ما الذى اقترفه هؤلاء كى يستحقوا نهاية كهذه ؟ إن لم تخنى الذاكرة فهذه أبشع ميتة رأيتها فى حياتى .. »

للمرة الأولى هززت رأسى موافقًا ، وقلت :

ـ «نعم .. كلما فكرت فى أن هؤلاء قرويون بسطاء مزقتهم الضباع وهم أحياء ، بينما الأوغاد الذين اعتدوا علينا ينعمون بحريتهم وما سرقوه .. »

قال فى حيرة :

ـ «أنت تعرف أننى مادى جدًا .. لكننى أعتقد أن هناك حكمة عليا لا نفهمها .. وهذه الحكمة تسيطر على تفاصيل الكون .. »

ولذنا بالصمت ونحن نرمق الثلاثة يتركون عالمنا إلى عالم آخر يختلف فى كل شىء ..

ترى ما هو مصير الأوغاد الذين هاجمونا ولاذوا بالفرار ؟ كنت أتمنى أن أعرف الإجابة ، لكن هذه أمور لا تشغل فكرنا كثيرًا هنا فى سافارى ..

★ ★ ★

د. علاء عبد العظيم

من قرب ديربان

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

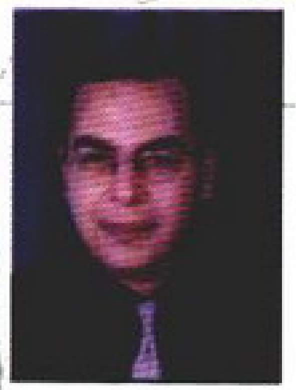
سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا

حكايات من الناتال

هذه حكايات عن قطاع الطرق الذين يوشكون على الفتك بمجموعة من السياح ، والزوجة التى قررت أن تسمم زوجها بعدما فقدت الأمان للأبد والصحفية الشابة التى أدركت أنها تحمل لعنة لا ذنب لها فيها ، وبركان الصدام العنصرى الموشك على الانفجار ، ومطاردة مثيرة وسط الأحراش ، والمحامى الأفريقى الذى ظل فى السجن سبعة وعشرين عاما ثم خرج ليحكم البلاد ..

إنها حكايات متفرقة لا يربطها إلا خيط واحد اسمه (علاء عبدالعظيم) ....



د. أحمد خالد توفيق

الرواية القادمة

رجال من رجال

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية